أيام النبيلة عائشة

رواية

ساره محمود

الكتاب: أيام النبيلة عائشة

المؤلف : ساره محمود

التصحيح اللغوي: ندى محمود

رقم الإيداع: ٢٧٢١٨ \ ٢٠١٩

الترقيم الدولي: ٣- ٤٢ - ٦٧٤١- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/ ٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan



إهداء..

إلى أعظم الرجال..

المهندس / محمود محمد رمضان

أبي وصديقي المفضل.. صوت الفرح في أيامي.. وعطر الجنة الذي غادر الأرض متعجلًا..

على روحك ألف رحمة وألف نور وألف سلام..

" لولاك ما كتبت ".



تنبيه هام :

هذه الرواية مستوحاة من أحداث حقيقية..

تحمل في طياتها جزء من الحقيقة والكثير من الخيال.


أسك زاد

All the world's a stage,
And all the men and women merely players;
They have their exits and their entrances..

William Shakespeare

ما الدنيا إلا مسرحٌ كبير..

كل الرجال والنساء عليه مجرد ممثلين،

كلٌّ له دخول وكلٌّ له خروج..

ويليام شكسبير

(١)

فندق " سافوي " لندن – الثلاثاء ١٠ يوليو ١٩٢٣

لم تكن حرارة الجو المرتفعة طوال النهار تنبئ بالعاصفة التي حلَّت على لندن في منتصف تلك الليلة، حيث شقَّت العاصفة طريقها من كينجستون وريتشموند وصولًا إلى العاصمة البريطانية، في تقلُّب غريب للجو لا يمكن أن تشهده إلا في القارة الأوروبية.

في المطعم الكبير لفندق " سافوي " اختلط صوت الرعد بعزف رقيق على البيانو وهمهمات نزلاء الفندق الخافتة والأصوات الناتجة عن حركة أدوات المائدة..

على إحدى طاولات المطعم المُطلَّة على إحدى نوافذ الفندق ساد صمت ثقيل تتخلَّله نظرات حذرة تترقب ردة فعل الطرف الآخر..

تجلس " مارجريت ميلر " أو كما يناديها زوجها " منيرة هانم " على الطاولة بهدوء لا يعكس ثورتها العارمة وأعصابها التي تغلي، ناجحة في إخفاء كل هذه المشاعر بين ثنايا جسد أوروبي بارد.. تعلو شفتاها ابتسامة مستفزة تتعمد بها أن تثير أعصاب زوجها وتدفعه إلى الجنون.. وعلى الجهة الأخرى من الطاولة يجلس الزوج " علي فهمي " أو كما يحب أن يُنادَى" البرنس علي فهمي "، وعلى عكس الزوجة الفرنسية الباردة التي تكبره في السن بعشر سنوات فإن طبيعته الشرقية لا يمكن أن تسعفه في اخفاء مشاعره، فنظراته كان توحي بالغليان.. وكأنَّ بركانًا ثائرًا على وشك أن ينفجر، وإلى جانبه يجلس سكرتيره الخاص " سعيد العناني " مكتفيًا بمتابعة ما يجري بين الزوجين في هدوء شديد، تعلو

وجهه الكالح نظرات شامتة تبعث في نفس الناظر إليه الكثير من الاشمئزاز.

في هذه الأثناء توقفت سيارة أجرة أمام المدخل الرئيسي للفندق، نزلت منها سيدة في العقد الثالث من العمر يتبعها زوجها في خطوات دقيقة وسريعة تتناسب مع هيئته الجادة وطبعه الصارم، في لحظات كانت السيدة وزوجها واقفين على مدخل مطعم الفندق يراقبان الطاولات بحثًا عن مكان جلوس " البرنس علي فهمي " وزوجته .

****

لم يكن من الصعب ملاحظة مكان طاولة جلوس البرنس علي مع زوجته الفرنسية، فـ " مارجريت ميلر " أو " منيرة هانم " يمكن أن تجذب الأنظار إليها من على بُعد أمتار بجمال فرنسي أخّاذ، وقوام ممشوق غلَّفته بفستان حريري من اللون العاجي مُزيّن بحبات اللولو، وعقد من الألماس يزين رقبتها فيضفي عليها طابع من الثراء والتميز..

ولعلك إذا نظرت إلى " مارجريت ميلر" لا يمكنك أن تكتشف بالتحديد ما سر جاذبية هذه المرأة، فبالرغم أن لها وجه جميل وجسد ممشوق الا أنها لا تختلف عن بنات بلدها في شيء .. جمال فرنسي تقليدي، الشيء الوحيد المؤكد أن امرأة مثل مارجريت كانت تعرف كيف تُسوِّق لأنوثتها، فخبرتها كمومس سابقة تؤهلها أن تفهم طبائع الرجال ونقاط ضعفهم وطرق إغرائهم والضغط عليهم، امرأة مثلها في العقد الثالث من العمر مرت بعشرات التجارب؛ فهي عشيقة سابقة وزوجة سابقة،

وحبيبة سابقة لعدة رجال كان العامل المشترك بينهم هو الثراء الفاحش، بغض النظر عن طبائعهم وجنسياتهم وأعمارهم .. المال هو اللغة الوحيدة التي كانت تفهمها مارجريت وتستطيع التعامل معها وتتغاضى من أجلها عن كل شيء، ولعل هذا ما أدَّى بها إلى الموافقة على الزواج من" البرنس علي" رغم أن تجاربها السابقة في الزواج جعلتها تُقسم أن لا تعود إلى مثل هذه الخطوة وأن تكتفي بدور العشيقة فقط .. لكن ثروة " علي فهمي " كانت من الضخامة بحيث جعلت مارجريت تنسى أي وعود قطعتها بينها وبين نفسها، فمنذ أول لحظة التقته بها في فندق " سميراميس " بالقاهرة عام ١٩٢١ أدركت أنها وقعت على صيد ثمين..

الحقيقة أنه كان من غير المعروف مَن مِن الطرفين كان يعتبر الآخر صيد ثمين، فمارجريت كانت ترى في علي ثروة طائلة تمشي على قدمين، إلى جانب أن مكانته الاجتماعية ستضمن لها المستوى الذي تمنَّت أن تعيش فيه، بالرغم أن البرنس " علي فهمي " لم يكن أميراً بالمعنى المقصود.. إنما هو لقب أطلقه على نفسه نظراَ لأن اخته الكبرى زينب قد تزوجت من الأمير حيدر فاضل ابن عم سلطان مصر أحمد فؤاد فأصبحت تلقب بالنبيلة وكذلك شقيقاتها البنات..

ولكن هذه الصلة كانت كفيلة بأن يعتبر " علي فهمي " نفسه من العائلة المالكة ويطلق على نفسه لقب " أمير الشباب "..

وثروة علي فهمي الضخمة في الواقع كانت تؤهّله أن يعيش كأمير بالفعل .. فالبذخ كان هو العنوان الرئيسي لحياته بدءاَ من ملابسه وسيارته.. وصولًا إلى أصغر تفصيلة في حياته، فأزرار سترته من الذهب

الخالص، وولاعة سجائره مُطعَّمة بالياقوت، ولم يكتفِ بذلك بل ترك منزل أسرته الواقع في باب اللوق ليبني قصر من أفخم القصور في جزيرة الزمالك المُطلَّة على النيل بعد أن زار أوروبا وانبهر بالهندسة المعمارية في قصر فرساي.. فقرر أن يمتلك تحفته المعمارية الخاصة ، وكلف انشاؤه إلى مقاول إيطالي ووصلت تكلفة بناؤه إلى حوالي مائة ألف جنيه مصري ..

هكذا كانت طبيعة " علي فهمي " طفل مدلل كل ما يأمر به يُطاع، وكل ما يريده يحصل عليه، ولعل هذا ما لفت نظره إلى " مارجريت ميلر "؛ فامرأة بخبرتها وسمعتها عندما تُضاف إلى قائمة عشيقاته سيلفت إليه نظر الجميع، ويقال أن حتى الفرنسية ذائعة الصيت التي كان يُشاع أنه في يوم من الأيام كانت تربطها علاقة غرامية بولي عهد إنجلترا " الأمير إدوارد " لم تقاوم جاذبيته ووقعت في غرام البرنس المصري.

****

أمام طاولة البرنس وزوجته وقفت أخته النبيلة " عائشة فهمي " وزوجها الدكتور أحمد بك سعيد يراقبان المعركة الدائرة على الطاولة.

" بونسوار " .. هكذا قطعت النبيلة عائشة الصمت الثقيل السائد في المكان ، قبل أن يلتفت إليها أخيها علي ويُعقِّب باقتضاب شديد " بونسوار ".

أردفت النبيلة بلغة فرنسية سليمة.. " الجو قلب عاصفة شديدة أوي، غريبة مع إن الحرارة كانت مرتفعة الصبح "

" صحيح " عقَّبت مارجريت بنظرة ساخرة.

استطاعت النبيلة عائشة فهمي أن تلمح بذكاء وسرعة بديهة أن العاصفة على الطاولة كانت أشد، فما كان منها إلا أن ادَّعت التعب الشديد والرغبة في النوم واستأذنت مع زوجها أحمد بك سعيد ليغادرا إلى جناحهما الخاص في الدور الأول .. قبل أن تلقي على أخيها نظرة حانية تأملت خلالها وجهه الغاضب قائلة " بونوي".

****

(٢)

في حجرة النوم بالجناح الخاص بالنبيلة وزوجها، تَمَدَّد الدكتور أحمد على السرير بعدما انتهى من خلع ملابسه ووضع نظارته الطبية على الطاولة القريبة وشرد لحظات في سقف الغرفة ..

" إنتي عارفة إن أخوكي يا هانم غلط غلطة عمره لما اتجوز الخوجاية دي " قال الدكتور أحمد موجهاً كلامه لزوجته الجالسة أمام مرآة الغرفة.

أجابت عائشة بأسى وهي تراقب انعكاس وجهها التعيس بالمرآة " علي حبّها يا أحمد وإنت عارف كده، جايز طباعهم مختلفة عن بعض وهو ده سبب المشاكل إللي ما بتخلصش"

"هترجعي تاني تقوليلي سيرة الحب دي، ده ولد فسدان وهي عقربة طمعانة في فلوسه إنتي نسيتي أصلها ايه؟.. ولا بلاش هتركّبنا ذنوب على المسا، كفاية كلام في السيرة الغمّ دي .. تصبحي على خير"

وفي حركة أ وتوماتيكية أطفأ مصباح الأباجورة المجاورة وغطَّ في نوم عميق.

أما عائشة فظلت تراقب انعكاس وجهها بالمرآة غير عابئة بما قاله زوجها، مرت أمامها سنواتها الثلاثة والثلاثين بكل تفاصيلها.. موت أبيها ثم موت أمها بعده بعامين تاركة علي الصغير بعمر الأربع سنوات، فتولَّت هي وشقيقاتها الثلاث تربيته.. وبحكم كونه الولد الوحيد لم

يرفضن له أي طلب، فشبّ مدلّلًا حاد الطباع يثور لأتفه الأسباب..

ولم تستطع عائشة بالذات أن تقسو عليه، فمشاعرها نحو علي دائمًا ما كانت تأخذ شكل الأمومة الجارفة والأم لا تكره ولا تقسو مهما كانت طباع الأبناء..

حتى عندما أصر على الزواج من ماجريت رغم معارضة الجميع إلا أنها وقفت في صفه وشجّعت هذا الزواج راجية من الله أن يكون الزواج سبب هدايته واعتدال سلوكه الذي أصبح مثار حديث الأوساط الراقية .. رغم أنها تردد دائمًا أن الحب هو ما جمع أخيها بزوجته الفرنسية.. إلا أنها ما زالت وبعد هذه السنين لا تعرف هذا الشعور ولم تجربه..

ما هي ماهيّة هذا الشعور الذي قرأت عنه في الروايات ورأته على أشهر مسارح العالم ؟

علا وجهها الهادئ نظرة ساخرة وهي تراقب زوجها أثناء نومه .. هل ما يجمعها بأحمد هو الحب ؟ بالطبع لا، إنها تعيش بعالم وهو يعيش بعالم آخر، هي تعشق الخروج والسهر والرحلات والفن، وهو يعشق الطب والقراءة ومتابعة السياسة، هي عفوية تحب الحرية ولا تقبل أن يقيِدها شئ، وهو دكتور حتى في حياته يتناول الطعام بميعاد وينام بميعاد ويعمل بميعاد ويقترب منها بميعاد .. لكن ما الذي يجبرها على التحمّل؟ إنها حتى رغم عمر زواجها منه الذي تعدَّى العشر سنوات لم تهتم بمسألة الانجاب على الرغم من عشقها للأطفال، لكن هل يهمها أن تنجب منه ؟، هل تتمنى المرأة الانجاب من الرجل عندما تحبه ؟، وهل الحب هو بوابتها نحو الشعور بالسعادة التي لم تختبرها يومًا ؟..

كلها أسئلة جالت في خاطرها وهي تحدِّق في انعكاس وجهها التعيس في المرآة وتتحسّس بطنها الفارغ .. غالبت دمعة كانت على وشك السقوط.. ومسحت عن وجهها الأصباغ .. ثم توجّهت بإستسلام لتتمدَّد على السرير، أغمضت عينيها وهي تحاول أن تتجاهل انقباضة في صدرها تكاد تخنقها .. لا تعرف لها سببًا منذ الصباح.

****

انتقلت العاصفة إلى غرفة النوم.. مارجريت مصرة أن تحسم الليلة لصالحها.. لكن خصمها عنيد.. عنيد جدًا، يريد الفوز بأي ثمن!

استندت بقامتها الممشوقة على السرير وهي ترمق زوجها الثائر بإستعلاء.. كان في وضعيتها شئ من الإثارة حتى وهي بتلك الحالة.. شعر على بالإهانة في صميم كرامته.. وهو الذي لا يستعصي عليه أي شئ أو أي شخص.. يجب أن يروِّض تلك الفرس العنيد التي تملكها بصعوبة .. يجب أن يضع حدًا لتمرّدها..

لم يشعر بنفسه إلا وهو جاثم بجسده فوقها ويداه تكبل يدلها التي لا تكف عن المقاومة.. سيأخذها عنوة.. يجب أن يعطيها درسًا لن تنساه..

كانت رائحة الخمر المنبعثة من أنفاسه تكاد تخنقها، لن تسمح له بأن يُخضعها أو يتمعَّن في إذلالها.. لقد سئمت هذا الرجل وهذا القيد القمئ المُسمّى بالزواج.. لا تدري كيف أتتها القوة لتثني ساقيها ثم تركله بهما في بطنه.. ركلة قو ية أبعدته عنها وجعلته يصرخ ألمًا.

بصقت بتحدِّي ف أرضية الغرفة قبل أن تتوجه له بالكلام..: " ليس مجانًا أيها المخمور.. "

انهال بكفه الضخم على خدها وهو يقول..: " ساقطة.. كنتي وستبقين ساقطة "

ربما أثار بكلماته ما كانت تريد أن تنساه أو تتجاهله.. كانت أظافرها التي غرستها بوحشية في وجهه رد فعل لا إرادي لإهانته..

لم يصدِق وهو يمسح الدم الذي ينزف بغزارة من وجهه.. لقد غرست أظافرها في كبريائه لا في وجهه..

" يجب أن تُعاملي معاملة الحيوانات.. يجب أن تتفهّمي وضعك الحقيقي .. أعرف جيدًا كيف سأؤدبك ! "

فتح خزانة الغرفة ليَخرج شيئًا ظنت أنه نسيه في مصر.. كرباجه الذي طالما أثار مخاوفها .. كان ينهال به ضربًا على كل من يثير أعصابه.

يجب أن تنجو من هذا الموقف بأي شكل.. هرعت إلى الطاولة الملاصقة للسرير حيث وضعت حقيبتها.. تذكرت هديته التي أهداها إياها قبل يومين.. ستهدده بها ليبتعد عنها.. يجب أن ينتهي هذا الكابوس.

أمسكت المسدس بيد مرتعشة ووجهته نحوه..

انهال بالكرباج على الأرض التي تقف عليها ليثير رعبها ثم أطلق ضحكة ساخرة قبل أن يقول:

" هل تظنين أن لديك الجرأة لفعلها ؟! "

قالت بصوت يملؤه الرعب..: " ابتعد عني وإلا فعلتها.. لم تترك لي أي خيار.. "

كان صوت ضربة الكرباج القوية أول ما تطرق إلى سمع عامل الفندق الذي كان يسير في الردهة.. ثم تلاه صوت ثلاث رصاصات أثارت رعبه.

****

كم من الوقت مضى لا يمكن التكهّن بالتحديد .. ربما نصف ساعة أو أقل، نامت فيهم عائشة نوم مزعج يتخلله الكوابيس، ذلك النوع من النـ وم الذي تتمنى لو زارك الأرق عوضًا عنه ..

طرقٌ شديد على باب جناح النبيلة وزوجها، جعل الدكتور أحمد يفيق مفزوعًا بإتجاه الباب..

"إستنى يا أحمد ما تفتحش" قالت عائشة بصوت مبحوح، وسيل من الدموع الساخنة قد تفجر من عينيها وصدرها يعلو ويهبط وكأنه لم يعد يتسع لقلبها المخلوع.. مشاعر لا تعرف لها تفسير منذ سمعت الباب يُطرق.. جملتها لم تلقى تأثيرًا لدى الزوج الذي وفي لحظات كان واقفًا عند باب الجناح ممسكًا بمقبضه في كفه وهو يقول:"حصل ايه؟"..

رغم أن قدماها لم تكن تسعفها على الحركة وضعت عائشة الروب على جسدها وفي خطوات مرتبكة لحقت بزوجها عند الباب لترى وجهًا لم تكن تحب رؤيته، سكرتير أخيها " سعيد العناني " وعلى وجهه علامات الفزع والخوف .. هذا الوجه الذي لم ترَه يومًا سوى مبتسمًا ابتسامة

خبيثة تجعل نفسها تشمئز، لم يطمئن قلبها يومًا لهذا الرجل ولم تستسغ تصرفاته، كانت تكره تعبيراته وحركاته التمثيلية لأنها تعلم علم اليقين أن ولاءه لأخيها لم يكن ولاءًا صادقًا، كان ولاءًا تشوبه الأطماع في ثروته ويهدف لتحقيق مصالحه الشخصية .. لكن ما تراه الآن هو وجه صادق يتصبّب العرق منه وتكاد العينان أن تقفزا من الفزع.

" أنا .. أنا آسف على الازعاج، لكن حصلت حاجة .. في الحقيقة مشكلة كبيرة بين البرنس ومنيرة هانم قصدي مارجريت "

صاح الدكتور أحمد بصرامة: " ما تنطق يا أفندي.. حصل ايه؟ "

" مارجريت هانم ضربت نار بمسدسها على البرنس "

علا صوت الدكتور أحمد بفزع: " علي جراله ايه؟؟؟ "

أطرق سعيد برأسه في الأرض ونطق في صوت هادئ: "البقية في حياتكم".

لم تنطق عائشة بحرف وهي تستمع إلى الحوار الدائر وكأنَّ صوت ما في عقلها كان ينبئها الحوار قبل أن تسمعه، أحسّت فجأة برأسها يثقل على جسد ها وأنفاسها المتلاحقة تخفت شيئًا فشيئًا .. علت أصوات دقات قلبها حتى كادت أن تثقب طبلة أذنيها واستحال المشهد أمامها إلى ظلام في لحظات.

****

أيّ كلمات في العا لم قد تصف شعورك عندما تفقد شخصًا تحبه ؟ وأي مشاعر في الكون قد تكفي لتُعزِّيك ؟ هذه الحسرة التي لا تهدأ في قلبك كيف السبيل لإيقافها ؟ وكيف يمكن أن تجبر عقلك أن يستوعب فقدان روح كنت تتمنى أن تفقد العالم كله ولا تفقدها ؟ ..

في عمر عائشة عدة لحظات لم يتمكن عقلها يومًا من أن يتخطَّاها، ورؤية جثة أخيها المُمدَّد في ثلاجة الموتى كانت يلا شك أهم تلك اللحظات، ذلك الطفل الذي تولَّت تربيته وهو بعمر الأربع سنوات، ذلك الحب الغريب الذي كانت تحمله في قلبها تجاهه.. هذه الأمومة الجارفة التي لم تتمكن يومًا من تفسيرها، لحظات الشجار والضحك والقلق والغضب.. كُتبت لها النهاية في مشهد لم يكن يخطر في بالها يومًا أن تراه أو أن تعيشه، تحسّست كفُّه البارد في رفق وانكبّت عليه تُقبّله بحرارة، ثم أطلقت صرخة مدوية من حنجرتها المبحوحة .. فاضت من خلالها كل مكنونات قلبها المخلوع..

ربما لم تحمل أحشاء عائشة من قبل جنينًا.. ولكنها اليوم أمّ مذبوحة بفقدان طفلها الوحيد!

****

(٣)

القاهرة - باب اللوق ١٩٢٣

لم تمنع شمس الصيف الحارقة الآلاف من المصريين وهم يشيّعون جثمان " علي فهمي " إلى مثواه الأخير، حيث خرجوا في جنازة مهيبة تتقدمها فتيات المدارس يحملن باقات الأزهار وعلى وجوههن علامات الحزن والانكسار، سار وراء الجثمان مختلف أطياف الشعب المصري .. الباشوات والموظفين والعمال .. المسلم والمسيحي والنساء والرجال .. في مشهد ربما لم يتكرر سوى قبل أربع سنوات في ثورة ١٩١٩.

كان مقتل " علي فهمي " بمثابة عود الثقاب الذي أشعل جراح أبناء مصر .. وكأنهم كانوا يفتقرون إلى الأسباب التي تؤدي بهم إلى كره أوروبا وكل ما يأتي منها.

وما زاد الطين بلة هو المحاكمة التي تمت بعد ذلك في القضية بحوالي ثلاثة شهور، واستند فيها محامي الدفاع الإنجليزي في دفاعه إلى أن " علي فهمي " ما هو إلا مخلوق شرقي متخلف أراد أن يحول " مارجريت ميلر " إلى جارية ويسلبها حريتها، وأن نتيجة معاملته الوحشية لها اضطرها إلى أن تطلق النار عليه دفاعًا عن نفسها، واسترسل في وصف العرب والمسلمين بأبشع الصفات وكيف أن المرأة في الشرق كائن لا حول له ولا قوة يُعامل معاملة الحيوانات ..

وفي ١٥ سبتمبر عام ١٩٢٣ تمّ الحكم ببراءة " مارجريت ميلر " من جريمة قتل زوجها " علي فهمي " ..

هذا الحكم الذي كان له بالغ الأثر في نفوس المصريين وفي نفس عائلة فهمي الملكومة، لقد قتلت مارجريت زوجها وأفلتت من العقاب.. وظهر المصريون والشرقيون أمام العالم كله بمظهر الهمج المتخلفين عن ركب الحضارة التي تقودها أوروبا لتنوير العالم كله وبناء المستقبل.

****

منزل عائلة فهمي في باب اللوق – ١٦ سبتمبر ١٩٢٣

ساعات ثقيلة تأبى أن تمر، ولحظات صمت وجلة، ووجوه تخشى أن تواجه بعضها البعض .. لقد خيّمت ظلال الحزن على منزل عائلة فهمي..

مَن المسئول عمّا حدث ؟ ولماذا تُرِكَ علي ليصل إلى هذه المرحلة ؟، لماذا لم تمنع العائلة هذه الزيجة بأي شكل ؟ .. أسئلة لم يجرؤ أي فرد من أفراد العائلة أن ينطق بحرف منها، لقد حلت المصيبة على الجميع وصدر حكم البراءة فزاد اشتعال النفوس بنار الحسرة واتَّسعت آلام الفقد .. لقد غاب علي إلى الأبد ولا سبيل لأخذ الثأر واخماد نيران الصدور التي تشتعل.

في غرفتها.. جلست النبيلة عائشة على سريرها المواجه للنافذة غير عابئة بنسمات الخريف الباردة التي تلفح خدها الذي لم تنضب عليه

الدموع، بشرود أخذت تتأمل أوراق الشجر الذابلة وحركة الأغصان الهزيلة، كما يفعل الخريف بهذا الشجر.. هكذا فعلت الحياة بروحها، لقد فقدت عائشة الأمل في أن تتذ وق طعم الفرح في يومٍ من الأيام .. هكذا يفعل بنا الفقد.. إن كل مظاهر الدنيا مهما بلغت من جمال تظل في أعيننا ناقصة طالما ليس بجانبنا مَن نحب.

على الطاولة القريبة من السرير كشفت جريدة الأهرام المُلقاة عن خبر يقول :

(برقية احتجاج) :

بإسمي أنا يوسف وهبي وبإسم فرقتي المسرحية فرقة مسرح – رمسيس – ونيابة عن جميع ممثلي وممثلات مصر نتقدم بالإحتجاج على التنديد والإهانات التي وجهتها جرائد إنجلترا إلى الشعب المصري في حادثة المرحوم علي بك فهمي، ويؤلمنا جدًا تعدِّيها على كرامة الشرق ووصفه بأخلاق هو برئ منها، ونرجو من حكومتنا الإحتجاج على ذلك.

طرق خفيف على باب الغرفة أفاق عائشة من شرودها .. كان زوجها الدكتور أحمد يستأذن بالدخول،

" اتفضل " قالت عائشة ونظرها ما زال يتركَّز على النافذة ..

تقدم إليها زوجها وجلس إلى جانبها برفق وطوّقها بذراعه في حنان شديد يخالف طبيعته الصارمة التي اعتادت عليها منه..

" أنا حاسس ومقدَّر شعورك صدقيني، إللي حصل حصل والحزن عمره ما هيرجّع إللي راح، أنا عايزك تتشجعي وتقفي تاني على حيلك، الحزن

بياكل القلب وبيضعفه، آن الأوان نرجع البيت .. أنا شايف ما منّاهش فايدة القعدة هنا "

كان صوت زوجها أشبه بموسيقى تصويرية للمشهد القائم أمامها، لم تستسغها أذنيها ولم تكن واثقة أنها سمعت كل كلمة من كلماته ..

بقيت عيناها معلقة على النافذة تراقب مشهد الأوراق الذابلة والأغصان الهزيلة، ثم قالت بطريقة حازمة:

" أنا عايزة أطَلق " .

****

(٤)

القاهرة – قصر علي فهمي بالزمالك ١٩٢٧

لم يتغير أي شئ في هذا القصر، ما زال كل جزء فيه على حاله .. تحفة معمارية تخطف الأنفاس.. تتجلّى فيها إبداع الهندسة الأوروبية كما أراده صاحبه أن يبدو.

على الرغم من غيابه الأبدي إلا أنَّ أخته النبيلة عائشة لم ترد لأي شخص سواها أن يتملَّك هذا المكان، لم تكن لتقبل أن يتشارك أي شخص معها في آخر ما تبقَّى لها من ذكرى أخيها .. فلم تكد تمر سنة على وفاته إلا وقد قامت بشراء نصيب جميع الورثة وأصبح القصر ملكية خاصة بها يعرف بقصر " النبيلة عائشة فهمي ".

أربع سنوات مرّت لم تدرِ عائشة كيف مرّت، وكيف استطاعت أن تحيا بعد فقدان أخيها..

أربع سنوات حصلت فيهم على الطلاق وتملَّكت قصر الزمالك وأصرّت أن تعيش فيه بمفردها، فلم يعد في مقدورها بعد الآن أن تتقبل أي أوضاع لا ترضيها .. ولم تفلح فيهم رغم مرور الوقت على أن تنسى أو تتجاوز ذلك الجرح بداخلها ..

أن تفقد شخصًا تحبه أشبه بأن تَقبل أن تعيش الحياة بسكين مزروع بعناية في قلبك، لا يراه أحد ولن تستطيع ولو حاولت أن تصف مقدار الألم الذي يعتصرك كل يوم، فقط ستحيا وستعتاد مع الوقت وجوده..

ربما لن يخف الألم يومًا ولكنك ستتعلم كيف تغيَر نظرتك له، ستصادقه وتعتاد على رفقته .. وربما تنظر في يومٍ من الأيام له مبتسمًا وتشكره لأنه الوحيد الذي ساعدك على أن تنضج.

لم يملأ فراغ أيامها سوى زيارات الأصدقاء.. والسفريات الطويلة.. والمشاركة في الأنشطة الخيرية مع ابنة خالتها هدى هانم شعراوي، وزيارة المسارح التي تعشقها، وحفلات الأوساط الراقية التي كانت تتجنبها معظم الوقت..

فلعد تعد تطيق النظرات التي كانت تحيطها والثرثرة الفارغة حول قضية أخيها التي كانت تبدأ ما أن تترك المكان، كانت تقتلها الذكرى فكرهت كل ما يذكرها بالماضي.. ولو أن في داخلها جزء رغم الألم لا يريد أن ينسى.

وعلى الرغم من عروض الزواج التي كانت تتلقاها والتلميحات المكشوفة لبعض الرجال المحيطين بها، لم تُعِر النبيلة عائشة للأمر أي اهتمام.. فهي تعلم على اليقين أن امرأة في ثروتها الضخمة ستصبح مطمع للكثيرين، فأين تجد مَن بين كل هؤلاء مَن يرغب بها لشخصها؟..

لقد تعوّ دت دومًا أن تصارح نفسها، هي تعرف أنها لا تتمتع بقدر كبير من الجمال، رغم ذلك فإن شيئًا مميزًا في روحها قد يجده الكثيرين جديرَ ا بالحب، كانت تمتلك قلبَا دافئًا ومشاعر حانية وأمومة لا تبخل بها على مَن يحتاجها.

ربما كرهت ثروتها في بعض اللحظات التي كانت تتمنى فيها أن تشعر بالحب .. فلولا كل تلك الأموال لتمتَّعت بالقرب الصادق من كل

المُحيطين بها، ولربما وجدت الحب أيضًا وعاشت حياة عادية كأيّ امرأة متزوجة تنجب أطفال وتفني عمرها في تربيتهم، وتقتل ذلك الفراغ السخيف الذي يستعمر أيامها.. لكن لا أحد يختار مصيره ولا أحد يتصور ما قد تحمل له الأيام في طياتها.

لقد جالت في فكر عائشة الكثير من التساؤلات عن الحب والحياة والموت، دائمًا ما كانت تهرب منها بالانغماس في أيّ شئ يُسكت الصوت بداخلها.. وهي اليوم تعرف بالتحديد ماذا ستفعل وكيف ستهرب من أفكارها وتساؤلاتها التي لا تنتهي.

وقفت أمام المرآة طويلًا .. بعدما انتهت من تصفيف شعرها ووضع الأصباغ على وجهها ارتدت قبعة السهرة التي يتدلَّى منها طبقة من قماش التُل الأسود التي غطت بها وجهها، تتماشى مع فستانها الأسود الذي زيّنته ببروش من الألماس قد أهداه إياها أخوها علي..

ألقت نظرة أخيرة على وجهها الهادئ ثم حملت حقيبتها وهمّت بالنزول إلى السائق الذي كان بإنتظارها على باب القصر .. دلفت إلى السيارة وأغلقت الباب ثم قالت بهدوء " شارع عماد الدين " .. و انطلقت السيارة بعيدًا.

****

(٥)

مسرح رمسيس – شارع عماد الدين

الانطباع الأول الذي سيخلفه مسرح رمسيس لديك عندما تراه للوهلة الأولى إنك قد دخلت إلى إحدى مسارح أوروبا.. الجدران المُغطَّاة بالقماش المخملي الأحمر والأثاث الفرنسي المنتقّى بعناية شديدة والسجاد الفاخر الذي يغطي أرضية المكان، والديكورات الراقية التي تنم عن ذوق رفيع بالتأكيد ستبعث في نفسك الإعجاب والفخر..

هكذا كانت تشعر عائشة في كل مرة تضع قدميها داخل هذا المكان، مؤخرَا أصبحت تتردد كثيرَا عليه .. لتشبع رغبتها في مشاهدة فن المسرح الذي تعشقه، تتابع الممثلين وتستمتع بآدائهم المُتقن وتصفيق الجماهير المدوي لهم ..

هكذا كانت تهرب من نفسها ومن مخاوفها وتساؤلاتها التي لا تنتهي..

تحجز بنوارًا كاملًا لها كل أسبوع لا يشاركها به أحد وتحرص على أن لا يتعرف إليها أي شخص، وعند انتهاء العرض تسرع إلى سيارتها المنتظرة خارجًا وتعود إلى قصرها في هدوء.

حتى كان ذلك اليوم الذي عرضت فيه مسرحية " المجنون " .. وقف على المسرح مرتديًا قميص المجانين الأبيض، الذي أبرز جسده مفتول العضلات التي اكتسبها من المصارعة التي كان يحترفها في أيام الصبا، بصوت مدوي وأداء مبهر أخذ يردد: " عليك اللعنة بعدد أيام الدنيا،

بعدد القبور التي فتحت منذ بدء الخليقة، بعدد رمال الصحراء .."، ثم جثى على ركبتيه وعلا صوته بالبكاء فدوت القاعة بالتصفيق والهتافات تقديراَ لهذا الأداء الجبار ..

ثم قام يوسف وهبي وانحنى للجماهير بطريقة آلية وكأنَه كان يتوقع ردود الأفعال، موهبته القوية يتخلَلها ثقة عظيمة بالنفس وإيماناً لا ينضب بالفن والمسرح..

فصوت الجماهير بالنسبة له أشبه بنغم ساحر يطرب اذنيه.. فيغمض عينيه ويرفع رأسه منتشياَ .. هذا هو مفهوم السعادة لدى يوسف وهبي، وهذه هي الحياة التي لطالما حلم بأن يعيشها وضحّى بكل شئ من أجلها.

انتهى الفصل الأول واتجه يوسف إلى ما وراء الكواليس ليجد زملائه وأعضاء فرقته يهنئونه على النجاح والأداء الباهر والتصفيق الذي لم يتوقف على الرغم من إسدال الستار.

" ايه رايح فين؟ " جذبه صديقه مختار عثمان من ذراعه وهو يغادر الكواليس

" أمرك عجيب يا أخي .. رايح أوضتي أرتاح وأراجع المشهد الجاي"

" طب اسمع، شايف مين هناك؟، ذات الرداء الأسود.. أنا أراهنك إن ما كانتش الست دي برنسيسة ولا معاها مال قارون دي بتحجز بنوار بحاله لوحدها يا أخي بمية وخمسين جنيه، أما أنت سرك باتع أوي يا يوسف يا أخويا"

ابتسم يوسف ابتسامة خيلاء لم يستطيع أن يخفيها وهو يراقب مكان جلوسها من وراء الستار ثم أردف: " ما أخبيش عليك يا مختار أنا كمان عندي فضول كبير أعرف هي مين .. " .

صمت للحظات يفكر قبل أن يقول: " اسمع.. أنا جاتني فكرة؛ إنت تبعت عيد السواق وراها بالأوتومبيل وخليه ما يرجعش من غير ما يعرف هي مين بس بصنعة لطافة كده ومن بعيد لبعيد"

وبالفعل بعد انتهاء المسرحية انطلق عيد السائق بالسيارة وراء سيارة النبيلة عائشة يتتبعها إلى أن وصلت إلى قصرها في الزمالك .. أوقف عيد السيارة وترجّل منها مُدَّعيًا حدوث عطل في المحرك ثم اقترب من بواب القصر وألقى عليه السلام وتسامرا لعدة دقائق ثم عاد لسيارته ووقف أمام صندوقها وكأنه يفحص المحرك ثم أعاد تشغيلها وألقى السلام على البواب وانطلق بعيدًا.

****

في المسرح كان يوسف وصديقه مختار عثمان جالسين في المكتب يناقشان زيادة أجور العاملين بالفرقة عندما استأذن عيد السائق بالدخول ..

" ها.. عرفت تطلع مين ؟ " باغته مختار بالسؤال متلهفًا

" صبرك بس يا مختار أما نفهم منه، قولّنا عملت ايه يا عيد ؟"

" أنا مشيت ورا العربية لحد ما وصلت لسراية كبيرة أوي في الزمالك..

سراية ايه؟!! قول قصر.. حاجة أُبّهة أوي يا أستاذ.. وأما خدت وإدِّيت مع البواب عرفت منه إن صاحبة القصر دي اسمها عيشة هانم فهمي ووارثة القصر ده عن المرحوم أخوها "

ابتسم يوسف في تعجب ثم ردد بصوت خافت: " عيشة هانم فهمي .. ممم صدفة غريبة ".

****

في عصر اليوم التالي كان يوسف مستغرقًا بالتفكير داخل مكتبه يُحدِّق بالفراغ الماثل أمامه عندما قطع صوت صديقه مختار عثمان وهو يفتح الباب عليه حبل أفكاره..

" ما قولتليش بقى يا أبو حجاج.. أنا سألتك إمبارح وما جاوبتنيش؛ تطلع مين عيشة هانم فهمي دي ؟ "

أطلق يوسف ضحكة خافتة، ثم أجاب :

" إنت فاكر علي فهمي إللي مراته الفرنساوية قتلته من كام سنة وطلعت براءة بعدها؟ "

" أيوة أيوة .. البرنس علي ، ده البلد كلها اتحرق دمها بعد الحكم ده "

" أهي دي تبقى عيشة أخته .. تعرف إن والدها ووالدي الله يرحمهم كانوا زمايل أيام بعثة الهندسة إللي سافرت أوروبا زمان؟"

" قولتلي بقى .. طلعتوا ولاد ذوات زي بعض يعني " ثم أطلق مختار

ضحكة ساخرة.

على الباب كانت تقف فتاة رقيقة الملامح في السابعة عشرة من عمرها تستأذن بالدخول..

" إ تفضلي يا أمينة " قال يوسف مشيراَ لها بيده

" حضرتك طلبتني يا أستاذ ؟ "

" أيوة إحنا هنعيد عرض رواية غادة الكاميليا تاني.. المرا دي من غير مدام روز اليوسف، ايه رأيك لو بقيتي البطلة ؟ "

لمعت عينا أمينة الزرقاوين بالفرح .. لم تشح بنظرها عن وجه يوسف وهبي منذ دخلت المكتب، لن تستطيع ولو أرادت أن تشيح بنظرها عنه، فمنذ أول لحظة وطأت قدماها مسرح رمسيس لا ترى إلا يوسف وهبي ولا تستمع إلا لكلماته، ولا تقدر إلا أن تنبهر به .. لقد خطف يوسف أنفاسها منذ البداية، تملَّك قلبها واستعمر وجدانها، ولا يبدو أن هذا الشعور سيزول قريباَ..

" ها يا أمينة.. ما بترديش يعني " قطع صوت يوسف شرودها الذي طال

" أنا مش عارفة أقول ايه يا أستاذ .. أنا فرحانة بثقتك فيا و.. "

" ما تقوليش حاجة يا أمينة.. أنا عارف إنك موهوبة ورغم سنك الصغير إلا إنك اتعلمتي كل حاجة بسرعة، وتستحقي الفرصة دي .. وزي ما قولت قبل كل ده.. كل ممثلة هنا تستحق تبقى بريمادونا الفرقة، إنتي تعدِّي على أستاذ عزيز عيد وهو هيفهِّمك كل حاجة، وعلى فكرة أنا

بردو إللي همثِّل دور أرمان دوفال، يعني هنبقى عشاق مع بعض على المسرح، أنا عارف إنك هترفعي راسي "

احمرّ وجه أمينة خجلًا وهي تقول: " أشكرك يا أستاذ .. أنا.. أنا سعيدة جدًا بثقتك دي، وإن شاء الله أكون عند حسن ظنك .. عن إذنك "

خرجت أمينة من باب الغرفة وعيناها لم تفارق وجه يوسف لحظة، حتى أنها لم تلحظ وجود مختار في الغرفة .. خرجت وقلبها لا يسع السعادة التي ألقت بها كلمات يوسف فيه، ارتسمت على وجهها ابتسامة حياء وفرح لم تفلح في اخفائها، دقائق معدودة قطعتها من المكتب إلى غرفة الممثلات لم تشعر بها ولا تدري مَن صادفها في الطريق أو كيف وصلت إلى وجهتها.

دلفت إلى الغرفة لتجد شابة في مقتبل العمر شقراء الشعر وبيضاء البشرة تحدق بوجهها في المرآة، تهمّ بوضع الأصباغ وتصفيف شعرها ..

" خير يا أمينة.. أستاذ يوسف كان عايزك في ايه ؟ " قالت صديقتها زينب صدقي بصوت رخيم

"مش هتصدقي يا زوزو، تخيلي إنه أنا هبقى بطلة غادة الكاميليا!"

" بجد ؟ ده خبر هايل إن جيتي للحق إنتي تستحقي يا أمينة، فرحتلك أوي بجد .. بس إ وعي تكوني فضلتي واقفة مبلِّمة كده قدامه .. افتكري ده طلب منك تبقي بطلة الرواية ما طلبش إيدك " ثم أطلقت زينب ضحكة مدوية.

امتعض وجه أمينة فجأة وكأنَّها تذكرت ما يربكها..

توجهت إليها صديقتها زينب بالحديث قائلة: " اسمعي يا أمينة.. انتي زي أختي وأنا خايفة عليكي، الأستاذ يوسف راجل متجوِز.. وغير كده معجباته كتير إللي زي ده ما تحطيش فيه أي أمل خالص .. أحسنلك تشوفي نفسك إنتي.. وعلى فكرة أحمد علام عدَّى على الأوضة هنا وسأل عليكي من شوية، الجدع قلبه داب يا عيني "

أجابت أمينة بنبرة منزعجة: " ولا أحمد علام ولا غيره.. أنا مش مركِّزة غير في التمثيل وبس .. ما تخليش فكرك يروح لبعيد، وبعدين قفِّلي بقى على السيرة عشان أنا سامعة صوت فاطمة وشكلها داخل علينا "

أمسكت فاطمة رشدي مقبض الباب بيدها ونظرت لزميليتيها في الفرقة شزرًا، ثم قالت: " ايه؟ جرا ايه بطلتوا كلام ليه ؟ هو إذا حضرت الشياطين ذهبت الملائكة ؟! "

أجابت زينب بلهجة ساخرة: " لا وعلى ايه يا ست فاطمة الدخلة دي ؟.. صحيح إنتي ما عرفتيش؟ مش أمينة هتبقى بطلة غادة الكاميليا؟ "

توجّهت فاطمة لأمينة بالكلام ووجهها يشتعل غضبًا.. " صحيح الكلام ده يا أمينة؟!! "

أومأت أمينة رأسها بالإيجاب ثم نظرت بعيدًا.

أغلقت فاطمة الباب بعنف ثم خرجت كالعاصفة التي لا تهدأ، صوت كعب حذائها العالي الذي لا يفارق قدميها وهو يدبدب على الأرض أوشك أن يُسمع مسرح رمسيس كله، وقفت فجأة أمام إحدى الغرف التي كُتب على بابها " غرفة المخرج " وقبل أن تطرق على الباب اتجهت

إلى المرآة المُعلَّقة على الحائط في الردهة، عدَلت تسريحة شعرها وأكدت على ربطة الحزام الذي يعانق خصرها ثم قرصت خديها ليزداد احمرارهم ..

أشياء لم تكن تحتاجها فاطمة لتزداد جمالًا أو أنوثة، الجمال الطبيعي الطاغي الذي أنعم الله به عليها.. يرافقه الذكاء الحاد والطموح الذي لا حدود له .. طرقت على الباب برفق لتستأذن بالدخول.

" اتفضل " .. صوت كهل شارف على الخمسين يجلس على إحدى مقاعد الغرفة في هدوء ممسكًا بعض الأوراق..

قالت فاطمة بصوت غاضب لا يخلو من الميوعة..:

" يرضيك إللي حصل ده يا أستاذ عزيز ؟ "

" حصل ايه بس يا بطاطا ؟ "

" الأستاذ يوسف خلَى الست أمينة رزق بطلة رواية غادة الكاميليا بدل ما يختارني أنا .. أنا أحق واحدة أمثل الدور بعد مدام روزا "

" طب وده يزعَّلك في ايه بس؟ ما إنتي كنتي بطلة الرواية إللي فاتت .. وأمينة موهوبة وتستحق الفرصة "

" أنا المفروض أبقى بريمادونا فرقة رمسيس كلها .. يوسف وهبي بنفسه قاللي إني موهبة جبارة، وإنت كمان مش ده رأيك ؟!.. كل مسرحية لازم تبقى بطولتي "

أمسك عزيز ذراعها برفق ثم جذبها إليه وهم أن يلثم خديها قبل أن تدفع بنفسها بعيدًا عنه ..

" وبعدين معاك يا أستاذ .. مش هينفع الكلام ده، مش كل مرة كده، النوبة إللي فاتت لما جبتلك حلة المحشي والفراخ في بيتك أمي سوِّدت عيشتي .. دي حتى محرّجة عليَا أشوفك أو أتكلم معاك "

أطرق عزيز برأسه في حزن، ثم أردف: " طب والحل ايه بس يا بطاطا ؟ أنا بإيدي ايه؟ "

رمقته فاطمة بترقب قبل أن تقول..:

" نتجوِّز ! .. ونعمل فرقة لوحدنا.. إحنا مش أقل منها .. مخرج عظيم زيك هيقومِ أي فرقة "

لم تعر اهتمامًا لنظرة المفاجأة التي علت وجهه، ثم أردفت: " يا أستاذ بصراحة إنت حقك مهضوم في المكان ده، يوسف وهبي سارق كل الأضواء منك .. محدش مدِّيلك حقك ولا عارف قيمتك، اسم عزيز عيد لازم ياخد حقه أكتر من كده.. فكَّر يا أستاذ أرجوك.. وأوعدك إنك مش هتندم "

تنهّدت بدلال ثم طبعت على خده قبلة متمهّلة أشعلت جسده وخرجت تتمايل في هدوء، تاركة الكهل الذي شارف على الخمسين غارقًا في تفكيره ..

يحبها ؟ نعم يحبها بل يعشق التراب الذي تسير عليه، ولكن ما العمل؟ كيف يواجه سخرية المحيطين به وهو يريد الزواج بفتاة بالتاسعة عشرة من عمرها ؟ ..

إن فاطمة تختلف عن أي فتاة بجرأتها.. وذكائها الحاد.. وفتنتها

الطاغية وطموحها الذي لا نهاية له، كيف يجاريها ويفرض سيطرته عليها؟ إن كل مرة تقع عيناه عليها ينسى كل شئ، سنّه.. ومكانته.. وطبيعته الهادئة.. وهيبته التي تجبر كل مَن حوله على احترامه والخضوع له.

تحسّس دقنه الطويلة برفق وهو يُحدِّق بالشيب الذي يغزو شعره بالمرآة .. علت وجهه أمارات الحسرة واليأس وهو يحاول عبثًا أن يُخرس التساؤلات التي لا تتوقف داخل عقله، لقد أصابته لوعة العشق فهزت كيانه..

لم يختبر هذا الضعف في حضرة أي أنثى من قبل، على قدر ما يعشقها يكره ضعفه أمامها، ويمقت هيبته التي تهرب منه عندما يلقاها..

" والعمل ايه يا عزيز ؟ " حدَّث نفسه وهو يلقي بالأوراق التي يمسك بها على الأرض، ثم أمسك بكوب الشاي الفارغ بجانبه وضغط عليه بقوة حتى تهشم إلى قطع صغيرة وأحدث جرح غائر في كفه، تحسس الجرح في يده والدم الذي لا يتوقف وهو يتأوّه ألمًا، ثم أجهش في البكاء كطفل صغير.

****

(٦)

خمسة أيام كان فيها مسرح رمسيس على أهبة الاستعداد لإعادة عرض رواية غادة الكاميليا، فهي أول رواية يتم عرضها بحضور ملكة البلاد جلالة الملكة نازلي، وهو أيضًا أول عرض للرواية منذ غياب بطلتها التي اعتادت على أداء دور مارجريت جوتيه السيدة " روز اليوسف ".

اجتمع يوسف وهبي بأعضاء فرقته على المسرح ليطمئن على سير البروفات ويعطي لهم بعض الملاحظات النهائية.. على الرغم من أن عمر يوسف لا يتعدَّى الثلاثين عامًا إلا أن دراسته للمسرح في ميلان، وعشقه الجارف للفن جعلت منه شخصًا مؤهلًا بأن ينشئ ويدير فرقة كفرقة مسرح رمسيس، يعمل بها كممثل ومخرج ومؤلف أيضًا في بعض الأحيان.

وقف يوسف أمام أعضاء الفرقة وتوجه لهم بالكلام قائلًا..:

" أنا يا جماعة متفائل بشكل كبير إن العرض ده هيحقق النجاح المنشود، كون إن جلالة الملكة هتحضر العرض ده معناه إن اسم فرقة مسرح رمسيس هيبقى في السما، أي شخص بيشوف مهنة الفن إنها مهنة غير شريفة بالتأكيد هيغيّر رأيه ده وهنكسب جماهير أكتر بكتير .. أنا واثق فيكم وإنكم إن شاء الله هترفعوا راسي، وطالما معانا مخرج كبير زي أستاذ عزيز عيد فأكيد هنحقق النجاح .. ولا ايه يا أستاذ عزيز؟ "

كان عزيز عيد يجلس في ركن بعيد عن أعضاء الفرقة منزويًا غارقًا في تفكيره.. لم يسمع كلمة ممَا قالها يوسف ..

" يا أستاذ عزيز " توجّه له يوسف بالنداء..

" هه ؟! .. أيوة طبعًا طبعًا بالتأكيد "

" لا .. إنت شكلك مش معانا خالص النهاردة، ثم ايه إللي معوّر كفك بالشكل ده؟ سلامات يا أستاذ "

أمسك عزيز عيد كفه بأسى وهو يغمغم..: " الله يسلمك "

ثم وقعت عيناه على فاطمة التي كانت تجلس بين الممثلات ووجهها يشتغل غضبَا وحسرة على دور مارجريت جوتيه الذي ضاع منها، لم توجه له كلمة أو تنظر له نظرة واحدة منذ زارته في غرفته وعرضت عليه الزواج وإنشاء فرقة مستقلة بهم ، كانت واثقة تمام الثقة من أنه سيرضخ لما طلبته وأنها مسألة وقت لا أكثر، لقد ألقت عليه شباكها جيدًا ولن تعيره أدنى اهتمام حتى تخور قواه ويأتي إليها بنفسه ليعرض عليها الزواج ..

ففاطمة رشدي تنتمي لذلك النوع من النساء الذي يعرف متى يعطي ومتى يمنع، متى يحنو ومتى يقسو، وكيف بالتحديد يحصل على ما يريد.

قطع الإجتماع صوت امرأة أجنبية جميلة تدلف إلى المسرح يرافقها رجل أجنبي تبدو على هيئته الثراء والوجاهة ..

" Jo, darling where have you been ?"

كان هذا صوت لويز زوجة يوسف وهبي الأمريكية.

أجابها يوسف وعيناه معلَّقة على الرجل الذي يرافقها " هالو لويز! .. أنا

مشغول زي ما إنتي شايفة عشان العرض بتاع بكرة "

" عايزاك في مسألة مهم كتير .. I'll wait in the office "

أنهى يوسف اجتماعه بفرقته وهمّ أن ينصرف إلى المكتب ليلاقي زوجته والرجل الذي يرافقها، ولكن فضَّل قبلها أن يشعل سيجارة ينفث فيها عن توتره..

يعلم جيدًا أنه على وشك الدخول في مناقشة حامية مع زوجته، شرد قليلًا في علاقتهما وشعر ببعض الندم على التسرِّع في قراره بالإقتران بها .. لقد كانت لويز زميلة دراسته للمسرح في ميلان.. وقد انجذب إليها يوسف عندما شعر أنها تشاركه عشق فن المسرح وتسانده في كل خطوة يقوم بها، حتى أنها من أحد أهم أسباب إنشاء فرقة مسرح رمسيس؛ لما ساعدت به يوسف من وقتها ومجهودها سواء في مصر أو في إيطاليا، ولكن لويز الأمريكية من أم إيطالية كانت تطارد حلم آخر كبير، يختلف عن حلم يوسف ..

" أمريكا " حيث مسارح برودواي وسينما هوليوود، وقد باءت كل محاولاتها بالفشل وهي تقنع يوسف بالهجرة إلى أمريكا معها، ولكن يوسف وهبي قد درس المسرح وأحبه من أجل مصر، من أجل أن ينهض بأنقاض المسرح المصري الذي تدهورت حالته بعد ثورة ١٩١٩ .. لم يخطر بباله يومًا أن يحقق النجاح خارج بلده حتى ولو كان المقابل أكثر بكثير مما يحصل عليه هنا، أنهى يوسف سيجارته ثم زفر في ضيق واتجه إلى مكتبه.

في المكتب كانت لويز تجلس على إحدى المقاعد مرتدية فستان أزرق كشف عن ساقيها الجميلتين، وقبعة تتماشى مع لون الفستان أظهرت جمال بشرتها البيضاء المتشربة بالحمرة، عيناها الخضروان يقفز منهما الحماس والتوتر، تتحدث مع الرجل الذي يرافقها بسرعة وعصبية وأصابعها تنقر على المكتب بتناغم مزعج، يأخذها الحماس فيعلو صوتها تارة ثم تعود فتحاول أن تتمالك أعصابها تارة أخرى..

دخل يوسف المكتب ثم بادر الحديث بالإنجليزية قائلًا: " أعتذر لو كنت قد تأخرت قليلًا، عرض الغد غاية في الأهمية ويحتاج إلى الكثير من التحضيرات "

أجابته لويز وهي تحاول أن تفتعل الهدوء: " لا تقلق عزيزي، لم نتنظر كثيراَ .. دعني أعرفك بالسيد مارف ويلسون، رجل أعمال أمريكي وهو معجب جدًا بأدائك التمثيلي "

اتجه مارف ويلسون بالحديث إلى يوسف قائلًا: " مستر جوزيف أهلًا بك، لقد شاهدت أمس أدائك على المسرح، وأستطيع أن أجزم أنك موهبة استثنائية "

ابتسم يوسف بطريقة مفتعلة وهو يشكره..

" مستر جوزيف.. ما رأيك في استغلال مواهبك في السينما، لدي فكرة رائعة لفيلم جديد .. ألا تريد أن تقتحم هوليوود وتجرب حظك، ستحظى بالبطولة المطلقة "

وقبل أن ينطق يوسف سارعت لويز بالحديث قائلة ..: " وكيف يمكن أن يرفض مثل هذا العرض، عزيزي جو.. النجاح والمجد بإنتظارك .. إنها فرصة لا تعوض "

كان شعور عدم الراحة يلازم يوسف منذ دلف إلى المكتب وانخرط في هذا الحديث..

إنه يدرك جيدًا أنها فرصة لا تعوض لكنها ليست ما يريد ولم يتعوّد يومًا أن يفعل شيئًا لا يريده، يتبع قلبه وشغفه في كل أفعاله، وقلبه في مصر وفي مسرح رمسيس .. إن النجاح الذي يحققه في بلده يغنيه عن النجاح الذي قد يحققه في أي جزء آخر من العالم.

" سيد مارف أخشى أنني لست الرجل المنشود .. "

تجهم وجه الرجل الأمريكي قبل أن يسأله.. " ماذا تعني ؟ "

" أعني أن هوليوود وأمريكا ليستا على قائمة أحلامي، إنني أفضل تحقيق النجاح في بلدي، العالمية لا تعنيني في شئ، أنا أقدر جدًا حديثك وعرضك، ولكني لا أرغب في تضييع وقتك هباءًا .. لست الشخص الذي تبحث عنه "

احمرّ وجه الرجل غضبًا وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم استأذن وانصرف على عجل ..

أما لويز فبقيت في مكانها متسمِّرة لم تستوعب ما سمعته أذنيها..

لم يجرِ هذا الحديث كما كانت تتوقع، ظنت أنها لو وضعت يوسف أمام الأمر الواقع وعرضت عليه مثل هذا العرض المغري فسيرضخ لما

تطلب، ولكن يوسف وهبي رجل عنيد لا يقبل أن يعيش في أوضاع لا يرغب بها، ولا ينصاع وراء رغبات أي شخص غير نفسه .. أدركت لويز في هذه اللحظة أن الأمور بينهم قد وصلت إلى طريق مسدود.

" جو .. هل هذا رأيك النهائي ؟ .. هل هذا حقًا ما تريد ؟ " صاحت لويز وهي تضرب بكفيها على المكتب ووجهها يشتعل غضبَا

أجابها يوسف في هدوء: " عزيزتي لويز، لقد تناقشنا في الأمر مئات المرات.. ولقد أخبرتك من قبل أن مستقبلي هنا في بلدي .. مصر"

" و أنا لا مستقبل لي في هذه البلاد.. أنا أعيش هنا كغريبة .. لا أتصور أن أمضي بقية حياتي هنا .. أريد أن أعود لأمريكا حيث المستقبل "

أردف يوسف..: " مستقبلك هنا مع زوجك .. المرأة تعيش حيث يعيش زوجها "

نظرت إليه لويز نظرة ساخرة قبل أن تقول..: " هه لا وقت لدي لهذا الهراء.. إذا لقد انتهينا يا عزيزي .. أريد الطلاق ! " .

ثم خرجت من المكتب مسرعة وكل ما فيها يشتعل غضبَا .. حتى لاحظ كل مَن في المسرح الأمر، ومن بينهم مختار عثمان الذي سارع في الدخول إلى يوسف في مكتبه..

" ايه خير؟ صوتكوا كان مسمّع المسرح كله.. حصل ايه ؟ "

أجابه يوسف وهبي بنبرة هادئة " مفيش .. هنتطلق "

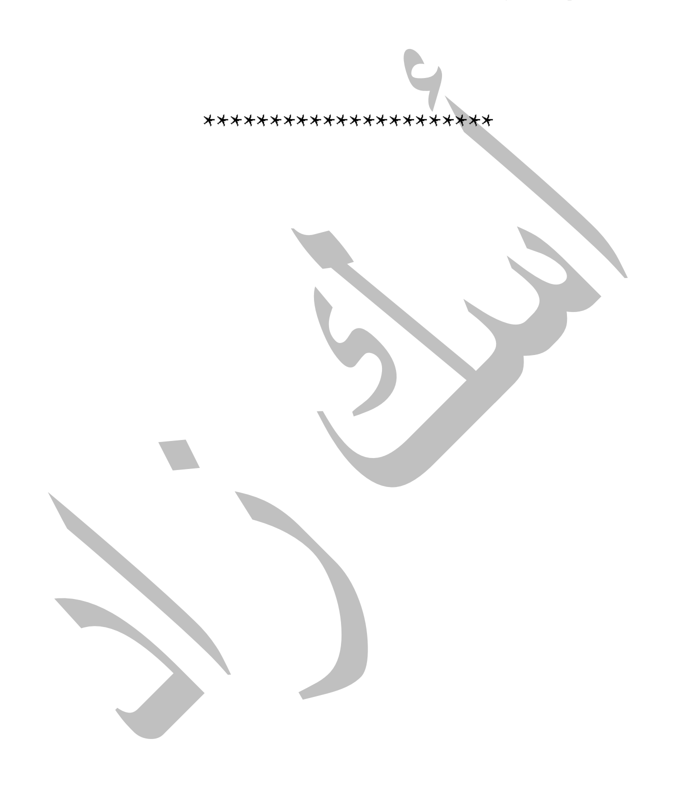
أطلق مختار ضحكة ساخرة وكأنه كان يتوقع الأمر: " بركة يا جامع .. أنا قايلَّك من الأول الجوازة دي مش نافعة، ما تزعلش بكرة ربنا يعوّض

عليك "

" خلينا في المهم، بكرة العرض .. ربنا يكرمنا "

" ما تقلقش يا يوسف.. دي مش أول مرة نعرض غادة الكاميليا، باذن الله بكرة هنكسر الدنيا ".

****



(٧)

مسرح رمسيس - ١١ يوليو ١٩٢٧

ليلة صيفية هادئة انقلبت فيها حرارة الجو المرتفعة طوال النهار إلى نسمات هواء باردة في الليل أنعشت سكان مدينة القاهرة التي لا تنام..

مَن يعشق الفن ويتابع أخبار الحركة المسرحية في مصر فهو بالتأكيد على علم بإعادة عرض رواية غادة الكاميليا على مسرح رمسيس بحضور ملكة البلاد جلالة الملكة نازلي ..

على باب المسرح تزاحم الجمهور على مكان الدخول للعرض الذي نفذت تذاكر حضوره حتى لم يعد هناك مكانًا شاغراَ للوقوف، إلى جانب الأعداد الغفيرة وباقات الزهور التي تملأ المكان وترحب بحضور ملكة البلاد، اجتمع بائعي التسالي والبقلاوة والذرة المشوي في مشهد يخيّل إلى الناظر إليه أنه لإحدى ليالي الأعياد.

ولم يكن الوضع يختلف كثيراَ داخل المسرح حيث امتلأت المقاعد بالمتفرجين وبنوارات النساء بالهوانم وبنات الطبقة الراقية اللائي حرصن على الحضور لمشاهدة الملكة أكثر من حرصهن على مشاهدة العرض نفسه..

في مكان جلوسها المعتاد جلست النبيلة عائشة فهمي في البنوار الذي تحجزه بمفردها تتابع عرض الليلة بشغف، أمسكت المنظار الخاص بها ونظرت باتجاه بنوار الملكة مثلها كمثل كل النساء في القاعة..

اطلالة الملكة نازلي كانت ساحرة تخطف الأنفاس وتلفت الأنظار أينما

حلت، تجلس في شموخ برفقة حاشيتها مرتدية فستان حريري باللون الأسود عليه طبقة من قماش التل الذهبي، ويتدلى من عنقها عقد من اللؤلؤ الثمين ربما لا يوجد له مثيل في المملكة المصرية كلها، شعرها القصير ذو اللون الأسود الفاحم يعلوه تاج رقيق من الألماس يضفي على هيئتها الكثير من الهيبة والوقار..

اطلالة أبهرت كل من تقع عيناه عليها .. حتى عائشة التي بإمكانها لو أرادت أن تبدو بأثمن من هذه الهيئة لم تستطع حتى بينها وبين نفسها أن تخفي انبهارها بمثل تلك الإطلالة .. لم تُطِل النظر كثيراَ وسرعان ما حوّلت نظرها إلى خشبة المسرح حيث انطلقت الفرقة الموسيقية تعزف معلنة عن بدء العرض.

انتهى الفصل الأول وسط تصفيق الجماهير الذي لا يتوقف، حيث أتقنت أمينة رزق دور مارجريت جوتيه تمام الإتقان وانغمس يوسف وهبي في أداء شخصية العاشق الولهان أرمان دوفال في الملحمة الرومانسية التي تسلب الوجدان ..

بدأ الفصل الثاني ويوسف وهبي على المسرح يواصل أدائه المتمكن، دقائق معدودة قضاها على خشبة المسرح ثم عاد إلى الكواليس ليستعد لدخوله القادم في بداية الفصل الثالث، اتجه إلى صديقه مختار عثمان ثم همس له..:

" بقولك ايه يا مختار.. خمس دقايق كده وراجع "

أجابه مختار في ذهول: "على فين ؟! انت مجنون! ده العرض شغال"

" يا أخي خمس دقايق مش هتأخر، أنا دخلتي الجاية لسه أول الفصل التالت "

ثم ابتعد عنه متجهًا إلى مدخل بنوارات النساء .. حتى وصل إلى بنوار النبيلة عائشة فهمي، وقف يتأملها لحظات من وراء الستار وهي تراقب العرض من خلال منظارها، ثم تشجّع وأزاح الستار وقال بصوت رقيق ..: " بونسوار يا هانم "

لم يكن صوت يوسف وهبي غريبًا على مسامع عائشة التي كانت منهمكة ومتأثرة بالعرض تتابع أحداثه بشغف، إنه صوت سمعته مرارًا يؤدي على المسرح وتأثرت بنبرته الرجولية الساحرة ..

تلفتت ببطء لتجد يوسف وهبي بملابس العاشق الولهان أرمان دوفال الذي قد يحارب كل شئ من أجل حبه.. يقف مبتسمًا ..

تلاحقت أنفاسها وهيا تنظر إلى ذلك الجسد الممشوق طويل القامة، وذلك الوجه الغريب وكأنه وجه هارب من إحدى الأساطير القديمة .. عيناه الزرقاوان كانا يلمعان بشئ من الحماسة والحذر.. نظرتهما الآخاذة أيقظت شيئًا غريبًا في قلب عائشة.. شيءٌ ربما لم تكن تعلم بوجوده بداخلها من قبل،

استغرقت لحظات وهي تفيق من شرودها وأجابت بإرتباك ..:

" بونسوار .. "

" عائشة هانم فهمي .. مش كده بردو؟ " لم يمهلها حتى تجيب وتابع قائلًا: " أنا بعتذر على اقتحام مكان جلوسك كده فجأة .. لكني كان لازم آجي بنفسي وأشكرك "

أجابت عائشة في ذهول وعيناها غارقتان في وجهه: " على ايه ؟ "

" على حرصك الدائم على حضور عروضنا المسرحية .. دي مش أول مرة آخد بالي من إنك بتشرفينا هنا، وده إن دل على شئ فبيدل على روح حساسة متذوقة للفن.. "

شعرت عائشة أن لسانها قد انعقد فجأة، فاض بصدرها مزيج من مشاعر الذهول والحياء والفرح..

استطرد يوسف حديثه قائلًا: " على العموم دي فرصة سعيدة جدًا وأتمنى إننا نشوف بعض كتير .. ودلوقتي أستأذن عشان دخلتي الجاية على المسرح قربت"

ابتسم يوسف في زهو وهو يمسك بكفها ويطبع عليه قبلة رقيقة .. قبلة جعلت كل خلجات جسدها ترتعش، ثم انصرف على عجل ..

لم تشعر عائشة بنفسها إلا وهي تمسك بحقيبتها وتخرج مسرعة إلى سيارتها الواقفة خارج المسرح، استقلَّت السيارة وأمرت السائق بأن ينطلق بسرعة إلى قصرها الكائن في الزمالك.

أما عرض غادة الكاميليا فقد وصل إلى نهايته وسط تصفيق الجماهير المدوي، الملكة نازلي لم تتمالك دموعها أمام تضحية مارجريت جوتيه المؤثرة ووقفت تحية لهذا الأداء الجبار وهذه الملحمة العاطفية التي لمست قلبها وقلب كل مَن في القاعة..

و وقف يوسف وهبي مع أعضاء فرقته على المسرح يحيّون الجماهير وينحنون لهم في فخر..

****

لا شئ يضاهي الشعور بالنجاح، خاصة عندما تنجح فيما تحب وفيما واجهت كل التحديات لتحقيقه .. لقد تحدَّى يوسف الجميع من أجل أن يصل إلى تلك اللحظة، بدايةً من أهله الذين عارضوه عندما أراد أن يدرس الفن واتَّهموه بالجنون عندما أراد أن يبدد كل ميراثه من أجل انشاء فرقة مسرحية ، وصولًا إلى المحيطين به من المشتغلين بمهنة الفن..

الذين قابلوه بالسخرية والاستنكار .. فماذا في وسع هذا الشاب " ابن الذوات " أن يفعل؟ .. لقد انهارت أحلام الجميع بأن يتم إعادة إحياء فن المسرح في مصر في أعقاب ثورة ١٩١٩ .. حتى عاد يوسف من إيطاليا محمّلاً بحلم كبير لطالما راوده كثيراَ، حلم بأن تمتلك مصر مسرح يضاهي أشهر مسارح العالم.. يعرض روايات هادفة تُهذِّب الأرواح وتسمو بالوجدان، ويعالج قضايا تمسّ أبناء هذا الشعب.. شعوره حين ضجّ المسرح بالتصفيق ووقفت ملكة البلاد تحيّيه وتحيّي فرقته كان أكبر من أن يحتويه صدره، فإنسابت دموع الفرح من عينيه وهو يشاهد حلمه يتحقق ..

اتجه ببصره ناحية مكان جلوس عائشة ففوجئ بأن البنوار فارغًا .. علا وجهه شئ من الحيرة وهو يتساءل أين ذهبت، لحظات قليلة مرة قبل أن ينسدل الستار.

****

لم تختبر عائشة هذا الشعور من قبل، إن كل جزء في جسدها يرتعش، وجه يوسف وهبي يأبى أن يغادرها وكلماته التي اخترقت قلبها ما زال صداها يتردد على مسامعها..

غادرت مسرعة لأنها ما كانت ستستطيع أن تبقى وتشاهد أي شئ، لقد كانت رؤية يوسف واقفًا أمامها يكلمها ويُقبَل يدها تغنيها عن مشاهدة ألف عرض.. غادرت لأنها أرادت أن تخلو بنفسها وتستوعب بهدوء ما قد حدث..

سبعة وثلاثون عامًا عمرها على هذه الأرض لم يفلح أي رجل من قبل أن يفعل بها ما قد فعله يوسف من أول لقاء، مر يومان منذ التقته ولا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير فيما حدث .. إنها تعلم أنه رجل متزوج وتعلم كمّ النساء اللائي يحطن به وأنه لا يمتّ بأي صلة للصورة التي في مخيلتها للرجل الذي تريد الارتباط به.. خاصة أنه يصغرها بالسن ويعمل في مهنة قد تجدها عائلتها والمحيطين بها مهنة غير ملائمة، ولكنها وبعد كل الذي حدث لا تستطيع إلا أن تتبع قلبها وتسعى وراء ما يسعدها.. لقد اكتفت من الحزن والضجر والخوف من آراء الناس..

تريد الشعور بالسعادة، الشعور بأنها على قيد الحياة ..ولأول مرة منذ سنوات تشعر بأن قلبها ينبض، وبأنها أنثى، وبأن الحب ربما قد يدق بابها هذه المرة.

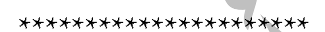
وقفت أمام المرآة ساعة كاملة تتفحص وجهها ومعالم جسدها..

ربما بدأت التجاعيد تغزو وجهها وأضاف الحزن على ملامحها سنوات عديدة، ولكن أنوثتها ما زالت موجودة.. وقلبها ما زال ينبض.. استعادت محادثتها مع يوسف في ذهنها ثم احمرَ وجهها خجلًا، تنهدت بإرتياح وكأنها قد توصّلت إلى قرار ما.. استدعت خادمها النوبي الذي

لبّى ندائها في لحظات..

" اسمع يا أبو القاسم.. محل الورد إللي على أول الشارع، تطلب منه أحسن بوكيه ورد عنده يروح على العنوان ده ويكون معاه كارت مكتوب فيه الكلام ده"

ابتسم الرجل الطيب في هدوء وهو يردد: " أمرك يا ست هانم ".



(٨)

إلى آنستي الرقيقة أمينة رزق..

تحية طيبة وبعد، أرجو أن يصلك خطابي هذا وأنتي بأوفر صحة وأتمّ حال وأجمل هيئة كما عهدتك دائمًا..

ربما يتبادر في ذهنك الآن السؤال عن السبب الذي دفعني إلى كتابة هذا الخطاب إليك، ولتعلمي يا آنستي الرقيقة أنني ربما أجيد التمثيل على خشبة المسرح وأجيد الحديث مع زملائي، ولكن عندما يأتي الأمر إلى الاعتراف بمشاعري فإنني أجدني أفضل حالًا في كتابة الخطابات.

لقد وقعت عيناي عليكي أول مرة منذ دخلتي مسرح رمسيس عام ١٩٢٥ ولا أخفيكي أنني لا أستطيع أن أنسى أول لحظة إلتقت بها عيناي بعيناكي، وأول مرة دققت في وجهك الملائكي وابتسامتك الساحرة، ولربما لاحظتي اهتمامي الزائد بكِ وحرصي دائمًا على الحديث معكِ .. لكن صدقيني يا أعز الناس ما أخفيه من مشاعر نبيلة وعاطفة سامية تجاهك أكثر بكثير مما أبديه.

ودعيني أؤكد لكِ بأني رجلٌ أخاف الله، ولا أدعوكِ لا - سمح الله - بأن تشاركيني بعلاقة يكون الهدف من ورائها أي شئ قد يمس بسمعة وشرف إنسانة رقيقة مهذبة مثلك.. وإنما غرضي هو الزواج على سنة الله ورسوله.

أرجو أن تفكري مليًا في كلامي، ولا تتسرعي الاجابة .. إنني أبني آمالًا

عريضة على ردك.. فإن وافقتي فسأكون أسعد رجل في هذه الدنيا.. وان كان ردك هو الرفض فإنني لا أملك تغيير أي شئ، وسيبقى ما بيننا هو الود الخالص الذي لن يقطعه شئ بإذن الله.

المخلص

دائمًا

أحمد علام

مزّ قت أمينة الخطاب بعدما فرغت من قراءته، وألقت بالورق المُمَزّق على الرصيف الذي تسير عليه..

إ نها منذ سلمه له أحمد علام وهي تهمّ بالخروج من المسرح وهي تعلم ما يحتويه، لقد حاولت مرارًا أن تصد محاولاته وأن تعامله بطريقة جافة لعله يفهم، ولكن هيهات.. سيتعين عليها أن تكسر قلبه وترفض عرضه بلطف.

ثم أخذت تبكي بحرارة .. ولكن ما يبكيها وهي التي ستحطم قلبه وتهدم آماله؟!

إ نها تبكي حظها.. لقد أرادت هذا الحب.. أرادته بشدة .. ولكن من شخص آخر، شخص سرق قلبها منذ وطأت قدماها مسرح رمسيس، شخص لا ترى إلا وجهه ولا تستمع إلا لكلماته، شخص متزوج وتحيطه الكثير من المعجبات..

" يوسف وهبي " .. ثم شعرت فجأة بالحنق عليه.. لماذا لا يبادلها نفس

الشعور؟! لماذا لا يكون هو الشخص الذي يرسل لها مثل هذا الخطاب؟ هل يفهم حقيقة شعورها ويتجاهلها؟ هل لا يجدها جديرة بمشاعره؟ هل ليست بالجمال والجاذبية الكافية لتستوطن قلب رجل مثله؟..

إننا عندما نحب ليس بوسعنا أن نختار الشخص الذي نحبه.. وليس بوسعنا أن نختار مصير هذا الحب..

تمنَّت وقتها لو أنها لم تقابله، لو أنها لم تدخل مسرح رمسيس، لو أنها لم تملك هذا القلب الغبي الذي تتلاحق دقاته في كل مرة تراه فيها..

" أمينة .. يا أمينة "

صوت صديقتها زينب صدقي وهي تركض من ورائها تناديها..

توقفت أمينة عن المشي ونظرت ورائها إلى صديقتها بعينين دامعتين

" ايه مشيتي ليه؟ مش اتفقنا هنمشي سوا ونروح مع بعض السوق؟ .. الله إنتي بتبكي! حصل ايه بس؟ .. أ نا شوفت أحمد علام وهو بيدّيلك جواب ف إيدك عند الباب .. الجواب ده هو إللي خلاكي تبكي؟ "

لم تنبس أمينة ببنت شفة وألقت بنفسها في أحضان زينب وهي تبكي بحرارة..

" طب بس بس إهدي يا أمينة، أنا حاسة بيكي .. أكيد قالك إللي في قلبه وإنتي بالك مشغول بغيره"

أجابت أمينة وصدرها يتهدج: " أنا عايزة أسيب المسرح يا زوزو، أنا مش هقدر أكمل بالشكل ده.. أنا قلبي بيوجعني "

دفعت زينب أمينة عن أحضانها ثم أمسكت بذراعيها قبل أن تقول..:

" لا يا أمينة، ما تخليش مشاعرك تتحكّم فيكي.. إنتي ممثلة موهوبة، وأديكي شوفتي غادة الكاميليا حققت نجاح قد ايه.. لو سيبتي المسرح هنا هتروحي فين؟ فرقة رمسيس أحسن فرقة مسرح دلوقتي.. ما تتسرعيش وتاخدي قرارات وإنتي منفعلة "

" بس أنا ..... "

" مفيش بس.. إنتي تيجي معايا دلوقتي نروح سوا نريح ونعملّنا أكلة ترمّ عضمنا وبعدين نبقى نتكلم في كل حاجة "

ثم ابتسمت زينب في حنان وهي تشبِك ذراعها في ذراع صديقتها أمينة.. وسارا بعيداً عن المسرح.

****

(٩)

تعد قاعة الاستقبال الكبرى الملحقة بمسرح رمسيس من أهم مميزات هذا المكان الساحر، حيث حرص يوسف وهبي عند إنشاء هذا المكان على أن يحاكي أشهر مسارح فرنسا وإيطاليا.. فألحق بصالة العرض قاعة مخصصة للتدخين وقاعة للمكياج وقاعة لإستقبال الزوار بعد العرض وللاستراحات بين الفصول.

و غالباً ما تمتلئ هذه القاعة بباقات الزهور وعلب الشوكولاتة والهدايا الفاخرة التي تصل مسرح رمسيس من جميع المعجبين، أو تصل " يوسف وهبي " بالتحديد..

رسائل المعجبات المرفقة بباقات الزهور التي تملأ القاعة كلها مُزيّلة بتوقيع فتيات وسيدات لم يجرؤن على ذكر اسمائهن الحقيقية بل اكتفين بكتابة الحروف الأولى أو استخدام أسماء مستعارة مثل " عاشقة رمسيس " أو " مارجريت جوتيه " أو "مجنونة يوسف وهبي " .. كلها رسائل تبعث في نفس يوسف الزهو وأحيانًا الضحك .. ولكنه اليوم توقف طويلًا أمام باقة كبيرة من الزهور النادرة التي تسرق النظر.. يزينها كارت صغير كتب عليه بخط منمق:

" أنا كمان أتمنى إننا نشوف بعض كتير" .. اتَّسعت عينا يوسف من الذهول وهو يقرأ التوقيع الذي كتب بخط بارز

" عائشة فهمي " وبجانبه رقم هاتف.

في لحظات كان يوسف وهبي في مكتبه ممسكًا بسماعة الهاتف ينتظر الرد على الرقم الذي طلبه للتو عندما جاءه صوت رجل نوبي..:

" ألو .. أي خدمة "

" أكلم عيشة هانم من فضلك .. قول لها يوسف وهبي "

" ثانية واحدة يا سيدي هبلغها حالًا.. "

كانت عائشة غارقة في أفكارها تجلس في غرفتها ممسكة إحدى المجلات.. تنظر في أوراقها تارة ثم تتأفف متضجرة تارة أخرها.. تعيد التفكير فيما فعلته.. تخشى أنها تسرِّعت وأنه ربما ينظر إليها كواحدة من مئات المعجبات اللائي يحطن به، شعرت بالإستنكار من فعلتها وتمنَّت لو أنها فكرت مليًا قبل أن ترسل إليه.. عندما جاءها صوت خادمها أبو القاسم يطرق الباب..:

" تليفون يا ست هانم "

" مين يا أبو القاسم؟ "

" بيقول اسمه يوسف وهبي يا ستي "

انتفضت عائشة من على مقعدها وقد تلاحقت دقات قلبها، كانت تؤنِّب نفسها منذ لحظات على فعلتها، ولكن قلبها الآن يرقص فرحًا لأنه قد هاتفها ..

جال في خاطرها ألف خاطر وهي تجري إلى مكان الهاتف .. زفرت أنفاسها في توتر وهي تحاول عبثًا أن تهُدئ من روعها وأمسكت سماعة الهاتف ثم قالت برقة: " آلو .. "

" على فكرة إحنا بقينا أصدقاء "

ابتسمت عائشة في خجل وهي تحاول أن تخفي إعجابها بجرأته: " بالسرعة دي ؟ "

أجابها يوسف بلهجة واثقة: " أنا أي حد بيهوى الفن بعتبره صديقي بدون مناقشة "

قالت عائشة بنبرة ساخرة :"على كده بقى كل الجمهور إللي بييجي يتفرج عندكم في المسرح أصدقائك ؟ "

يأتيها على الهاتف صوت يوسف وهو يضحك ، فتذوب ..

" لكن الأصدقاء لازم يشوفوا بعض كتير، عشان صداقتهم تبقى قوية ولا ايه ؟ "

أجابته عائشة ووجهها يحمر خجلًا: " يبقى تقبل عزومتي على العشا عندي في البيت بكرة الساعة ٧ .. أتمنى ما يكونش وقتك مشغول "

" من حسن الحظ بكرة هنعرض ماتينيه بس .. فإحنا كده اتفقنا "

سألته عائشة بمكر: " أظن إنت أكيد عارف العنوان .. ولا ايه؟ "

أردف يوسف وهو يغالب الضحك: " طبعًا .. الأصدقاء بيكونوا عارفين عن بعض كل حاجة "

شعرت أن بداخلها حديث لا يتوقف وأنها تريد أن تبقى معه على الهاتف لساعات طويلة.. حتى لو لم ينطق أي منهما بحرف واحد..

وفاجئها شعور بالخوف من أن يوسف قد لا يبادلها نفس الشعور ..

وأنه من الممكن أن يكون رجل معسول اللسان مع كل امرأة تقترب منه.. آثرت أن تنهي المكالمة على عجل وهي تحاول أن تخفي انزعاجها من الشعور الذي تملكها فجأة وهي تقول: " أنا لازم أقفل دلوقتي .. أورفوار ".

تعجب يوسف قليلًا من صوتها الذي تبدَّل في نهاية المكالمة، وغاص في أفكاره وهو يحاول أن يفهم ما الذي يدفعه إلى هذه المرأة.. شيئًا خفياَ فيها يجذبه إليها.. ربما هدوئها الغير مفتعل، أو ربما الحزن الذي يستوطن ملامحها .. هي ليست على قدر كبير من الجمال .. ولكن الشكل شيئًا لا يلفت نظر يوسف وهبي إلى المرأة .. تسحره المرأة الذكية الحنونة التي تملك عقلًا راجحًا وقلباَ كبيراَ، وهو يستطيع أن يجزم أن عائشة تتمتع بكل هذه الصفات، وأنها ربما المرأة التي يحتاج وجودها في حياته.

صوت حسين رياض الأجشّ وهو يصرخ لم يدع شروده يطول، حيث دخل عليه مكتبه وهو يشتعل غضباَ حتى بدا وجهه وكأنه قطعة من الجمر المشتعل..:

" خير يا حسين؟ ايه إللي جرى ؟ "

" آدي إللي ناقص كمان يا سي يوسف، وحياتك تقوللي هو مش التمثيل ده موهبة ولا فرد عضلات ؟ "

أجابه يوسف وهو يتجنب الضحك ويفتعل الجدية: " موهبة طبعًا يا أستاذ حسين .. "

" أمال يا أخويا سي زكي رستم إللي إنت جايبهولنا ده.. كل ما أوجه له ملاحظة في دور لورنزو إللي أنا كنت بمثله من قبل ما يعتب ويشرفنا هنا .. يبصلي من فوق لتحت ولا كأني بقول حاجة، وكل شوية يستعرضلنا عضلاته قال ايه يعني مفيش بطل غيره "

أطلق يوسف ضحكة مدوية لم يستطع منعها منذ دخل عليه حسين رياض، ثم عاد فحاول أن يتمالك نفسه عندما لاحظ الانفعال الذي بدا على وجه حسين..

" يعني وكمان بتضحك .. ما هو مش كل مين عايز يمثل ينفع يمثل!"

" يعني بذمتك يا حسين أنا هدخَّل فرقتي واحد ما بيعرفش يمثل، على فكرة زكي رستم ده موهبة ما حصلتش، وبكرة تشوف كلامي ده .. وبعدين يا سيدي لو هو بيورِينا عضلاته إقلع إنت كمان وورينا عضلاتك " ثم عاد وانخرط في الضحك..

احمرّ وجه حسين أكثر وقام من مكانه وهو يصرخ: " الواحد ما يعرفش ياخد حق ولا باطل في المكان ده، أنا الحق عليا إللي جيت أحكيلك.. أنا قايم ماشي " ثم خرج وهو يركل الباب بقدمه

أردف يوسف وهو لا يزال غارقًا في الضحك: " اسمع بس يا حسين ما تبقاش حنبلي.. يا حسين "

دلف مختار عثمان إلى المكتب وهو يتسائل: " ايه جرى ايه ؟ حسين ماله "

أجابه يوسف وهو يتنهد ضجراَ وقد توقف عن الضحك: " يا أخي أنا

دماغي صدَّعت من كتر المشاكل إللي كل شوية بتحصل دي .. شوفلنا في الحسابات قد حسبة ٢٠٠ جنيه من الإيرادات بتاعت إمبارح "

سأله مختار في استنكار: " ليه هتعمل بيهم ايه؟ .. سبق خيل بردو؟ "

زفر يوسف أنفاسه في ضيق وهو يقول: " وإنت مالك يا أخي؟ أنا حر! "

" يا يوسف أنا خايف عليك، إنت مبعزق فلوسك كلها على سبق الخيل.. كل ده جاي عليك بخسارة "

" هو إ نت كنت الست بتاعتي عشان تُعدّ تحاسبني "

أطلق مختار ضحكة ساخرة قبل أن يجيبه: " خلاص يا يوسف .. إنت حر! ".

****

(١٠)

كانت شمس النهار حارقة، وقيظ الصيف يبدو كضيف ثقيل طالت فترة اقامته ويأبى أن يرحل .. ترددَّت أمينة رزق عدة مرات هذا الصباح قبل أن ترتدي ملابسها وتهمّ بالنزول إلى مسرح رمسيس .. الحنطور الذي أقلَّها من السيدة زينب توقف على أول شارع عماد الدين ورفض أن يُكمل، على مضض ترجّلت أمينة لتكمل المسافة إلى وجهتها سيراً على الأقدام..

أفكار كثيرة أثقلت رأسهها وهي تسير تحت الشمس التي لفحت بشرتها البيضاء فبدت وكأنها أسرفت في وضع مساحيق التجميل على خديها .. تمنَّت لو أنها تغيّبت اليوم عن الحضور كما فعلت بالأمس، ولكن لا مفر من المواجهة .. ستقابل أحمد علام وستضطر إلى تحطيم قلبه وستقابل يوسف وهبي وسيتحطم قلبها هي.

وصلت إلى مدخل المسرح والإعياء يكسو ملامحها .. أطلقت بصرها فإذا بشاب طويل القامة وسيم الملامح يقف شارداً إلى جانب لوحة الإعلانات يدخن سيجارة وينفث الدخان في الهواء بضيق .. إنه هو أحمد علام، تملَكها شعور بعدم الراحة لأنها ستواجهه..

لمحها أحمد بطرف عينه فتهلَّل وجهه وأطفأ السيجارة التي كان يدخنها وركض اليها..

" أمينة كنتي فين ؟.. قلقت عليكي لما ما جيتيش إمبارح! "

أجابت أمينة بإرتباك: " كنت تعبانة شوية .. ففضلت أرتاح "

" ألف سلامة عليكي.. إن شاالله تكوني أحسن دلوقتي "

افتعلت الابتسام وهي تجيبه: " الله يسلمك "

أمعن في وجهها لحظات ثم سألها بلهجة قلقة: " ما قولتليش رأيك ايه في إللي كتبته ليكي ؟ "

عبثًا حاولت أن تستعين بجرأتها قبل أن تجيبه في هدوء..:

" اسمع يا أحمد .. أنا موضوع الحب والجواز ده ما بفكرش فيه دلوقتي خالص.. أنا كل تركيزي في الفن وبس، وبكل صراحة نظرتي ليك كأخ وزميل عمرها ما اتغيرت ولا هتتغير، أرجوك تتفهم كلامي ده "

علت أمارات الخيبة وجهه الوسيم الذي كان يتهلل فرحًا منذ لحظات.. أوشكت دموعه أن تنساب على خديه، ولكنه عاد وتماسك..

" أنا متفهم موقفك يا أمينة، وعمر الود بينًّا ما هينقطع.. بس اسمحيلي إني أسألك سؤال أخير؟ "

رمقته أمينة بإستغراب وهي تجيبه: " اتفضل "

" في حد تاني إنتي مشغولة بيه ؟ "

ألجمت المفاجأة لسانها، ربما يشعر أحمد من داخله بمشاعرها نحو يوسف وهبي.. ربما لاحظ نظراتها له وشغفها به التي حاولت مرارًا أن تداريه.

" الله.. إنتي ظهرتي يا أمينة؟، قلقتينا عليكي لما ما جيتيش إمبارح.. لعل

المانع خير "

قطع حديث يوسف وهبي الصمت الوجل الذي ساد بينهم.. تنقلت نظراته بينهما في تعجب عندما لم تنطق أمينة بحرف، ثم عاد ليسأل: " ايه مالكم ساكتين ليه انتوا الاتنين؟ "

كان الموقف أكبر من أن تتحمله مشاعر أمينة الرقيقة، تقف حائرة بين رجل يحبها ورجل تحبه!..

أغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول: " أستأذنكم أنا ورايا حاجات مهمة داخلة أعملها " ثم دلفت إلى المسرح على عجل..

نظر أحمد علام إلى يوسف وهبي وهو يتمزّق، فلقد حصل على اجابة لسؤاله الذي كان يحيره منذ لحظات..

هو يعلم أنها بالتأكيد منافسة محسومة لصالح يوسف وهبي عندما يتعلق الأمر بمشاعر أمينة رزق، ولم يستطع أن ينطق بحرف هو الآخر..

حدق فيه يوسف وهبي في تعجب وهو يسأله: "هو جرى ايه النهاردة؟ مالها أمينة؟ ومالك إنت كمان يا أحمد؟ مش على بعضكم ليه؟ "

أجابه أحمد بنبرة حزينة: " مفيش يا أستاذ.. أنا كنت عايزة أفاتحك في موضوع كده، إني .. بصراحة أنا عايزة أسيب الفرقة "

رمقه يوسف باستنكار ..: " ايه؟ فجأة كده؟ ايه إللي قلب حالك بالشكل ده؟ حرام عليك تضيع مستقبلك الفني.. عايز تسيبنا وتروح فرقة تانية! "

" لا تانية ولا تالتة يا أستاذ.. كل الحكاية إني أعصابي تعبانة شوية..

وهسافر إسكندرية فترة كده.. أخويا جايبلي وظيفة كويسة أوي في الشركة إللي شغال فيها "

" إنت بتخرّف بتقول ايه؟ عايز تسيب التمثيل وتبقى موظف! بقى ده كلام يخش العقل؟! حرام عليك تضيع مستقبلك، إنت ممثل كويس أوي وإنت عارف إني ما بجاملش حد "

أردف أحمد بيأس: " الله يكرمك يا أستاذ، بس بصراحة أنا ما عدتش مرتاح هنا.. وعاوز أجرب حظي في مكان تاني "

" على راحتك يا أحمد.. بس باب فرقة مسرح رمسيس مفتوح لك في أي وقت، لو حبيت ترجع تأكد إننا كلنا هنرحب بيك "

ربت يوسف على كتفه في عطف وهو يودعه وبداخله تساؤلات عديدة عن سبب رحيله المفاجئ..

شكره أحمد وهو يفتعل الثبات ثم سار مبتعدًا وهو يجر أذيال الخيبة.

****

اصطدم يوسف وهبي بعزيز عيد وهو يدخل إلى المسرح وقد بدا زائغ البصر، يمشي بصعوبة ويلتفت حوله وكأنه يبحث عن شئ ما..

" ايه خير يا أستاذنا؟ بتدور على ايه ؟ "

" أهلًا يا يوسف، مفيش حاجة.. بس قولت أمشّي رجلي شوية "

" طيب ما تيجي تشرب معايا فنجان قهوة في مكتبي ولا حتى إزازة

كازوزة، حاكم النهاردة الجو نار أوي "

ابتسم عزيز عيد في افتعال وهو يجيبه: " مش دلوقتي.. بس يمكن بعد العرض بتاع النهاردة "

" على كيفك يا أستاذ.. "

ثم اتجه يوسف إلى مكتبه تاركًا عزيز غارقا في حيرته..

اتجه إلى غرفة الممثلات وأطلق بصره فلم يجدها ثم سار في الردهة الطويلة وصولًا إلى غرفته، فوجدها تقف أمام المرآة المعلقة على الحائط في غنج تتمايل وهي تضع أحمر الشفاة وتتغنَّي بإحدى الطقطوقات .. جذبها من ذراعها ودفعها إلى غرفته ثم أغلق الباب..

انفعلت عليه فاطمة في حنق وهي تؤنّبه: " جرى ايه أستاذ بتزوقّني وتقفل الباب ليه؟ عايزهم في الفرقة يقولوا علينا ايه دلوقتي ؟! "

سارع عزيز بالكلام وهو يحاول أن يهدأ ثورتها..: " صبرك عليا بس يا بطاطا.. يا أحلى بطاطا في الدنيا، ده أنا عايزك تحدِّديلي معاد مع الست والدتك"

انفرجت أسارير فاطمة وهي تضحك حتى أصبح الفلج بين سنّيها متجليَا فزادها فتنة فوق فتنتها..

" صحيح يا أستاذ هنتجوز ونعمل فرقة لوحدنا؟ "

أجابها عزيز بإرتباك: " هنتجوز .. بس حكاية الفرقة إللي لوحدنا دي عايزلها تفكير كبير.. "

تجهّم وجهها وتغيّرت نبرتها وهي تقول: " قصدك ايه؟ مفيش جواز من غير فرقة، ده ما يجيش من غير ده ! "

" طيب ومش الفرقة دي عايزلها مسرح نعرض عليه؟ وتجهيزات وممثلين ومصاريف ياما، وأنا هجيب ده كله منين ؟!"

أجابته فاطمة في حماس: " من الناحية دي ما تشيلش أي هم، أنا إتعرفت على راجل غني أوي.. وعدني إنه هيقدر يساعدنا ويموِل فرقتنا"

رمقها عزيز بإستنكار وهو يسألها: "راجل مين ده؟ واتعرفتي عليه فين؟"

" ده .. ده جوز واحدة أعرفها وكنت قابلته كذا مرة صدفة معاها، أما راجل طيب بشكل! ووافق يموّلنا بس على شرط إنه ياخد نص الأرباح إللي هتجيلنا "

"بس أنا بنيت المكان ده مع يوسف وهبي وما يهونش عليا اني أسيبه.. مع إننا بنختلف مع بعض كتير، لكني بحس إن هنا بيتي"

لوت فاطمة شفتيها في حنق قبل أن تقول: " يادي يوسف وهبي.. يوسف وهبي إللي إنت بتدافع عنه ده بيغير منك وبينسب النجاح كله لنفسه، إنت ما بتاخدش بالك من الحفلات إللي بيعملها ولا الاستعراض إللي بيستعرضه بعد أي مسرحية في صالة الاستقبال؟، كلهم بيقولوا دي فرقة يوسف وهبي، حد مرة جاب سيرة عزيز عيد؟ "

تجهّم وجه عزيز وكأن كلامها قد صدمه .. إن كلامها يحمل الكثير من الصواب، ربما يوسف وهبي لا يغار منه ولكنه بالتأكيد يحرص على أن يجعل الأضواء دائمًا مُسلَّطة عليه، ليس لشئ.. ولكنها هذه هي طبيعته،

يرى أن الفنان يجب أن يكون دومًا تحت الأضواء، وأخباره تملأ المجلات والصحف..

على عكس شخصيته هو التي تكره الأضواء والشهرة وتوابعها، يفضل دومًا أن يؤدي دوره ثم ينزوي في هدوء وكأنه قد فرغ من تأدية مهمته..

أسندت فاطمة ذراعها إلى خصرها وهي تهزّ جسدها، ثم سألته:

" ها.. قولت ايه ؟ "

نظر إليها في آسى قبل أن ينطق..:

" طيب .. إديني فرصة أفكر ".

****

(١١)

قصر عائشة فهمي - الزمالك

توقفت سيارة كاديلاك سوداء عند مدخل القصر، ترجل منها يوسف وهبي وهو بكامل أناقته مرتدياً بدلة من قماش الكتان الأبيض.. وربطة عنق حمراء بخطوط وردية.. شعره المموج اللامع بفعل الفازلين مُسرَّح إلى الوراء في عناية، وعطر الياسمين الذي يفوح منه قد يربك أعصاب أي امرأة.. وصل إلى البوابة وعندما أفصح للبواب عن اسمه حيّاه في خضوع وفتح له البوابة على الفور.

داعبت نسمات الصيف المنعشة وجهه وهو يخطو إلى داخل القصر، ثم انتابه حنين خفي وهو يمعن النظر في المبنى الهائل الذي يقف أمامه، القصر الذي يمتزج فيه اللون الأبيض بالرخام الوردي شُيِّد على الطراز الأوروبي القديم.. طراز عصر النهضة..

المشهد القائم أمامه جعله يتذكر إيطاليا وأيام دراسته في ميلان فإبتسم في شجن .. ثم أطلق بصره في المساحة الواسعة المكسوة بالنجيلة الخضراء وصولًا إلى السور الطويل الذي يطل مباشرة على النيل، فوقف مذهولًا لحظات أمام هذا المنظر الساحر.. اعتلى سلالم الدرج القصير الذي يؤدي إلى الباب فوجد الخادم النوبي يقف مبتسماً ويرحب به.

رفع حاجباه في دهشة وهو يمعن النظر في بهو القصر، المساحة الواسعة والجدران المحفورة والثريات اللامعة إلى جانب الأرضية الرخامية

والسلم الفخم الذي يعلوه نوافذ من الزجاج المُعشَق برسومات ملوّنة من عصر النهضة.. قد بعثت في نفسه شعور أنه دلف إلى إحدى المتاحف أو أنه قد سافر عبر الزمن لأوروبا القديمة.

أشار له الخادم بالدخول إلى الصالون الكبير على يساره..

" الست هانم هتنزل لحضرتك حالًا "

جدران الصالون الخشبية التي تغطي أقمشة الحرير الطبيعي المزركش جزء كبير منها وتتوسطها نوافذ ضخمة.. ومدفأة كبيرة على جهة اليسار كانت كفيلة ألا يغيب الاندهاش عن نفس يوسف ..

جلس في شموخ على كنبة الصالون الأبيض واضعًا ساقه فوق ساقه الأخرى وشرد قليلًا فيما رآه لتوه..

إنه يعرف أن عائشة امرأة ثرية، ولكنه لم يتوقع أن تكون بهذا الثراء.. فقصر بهذه الفخامة إلى جانب الأموال الطائلة والأراضي التي ورثتها عن أبيها ومن بعده أخيها، كل هذا كفيل بأن يجعلها من أغنى نساء مصر، ربما عائلة يوسف وهبي عائلة ثرية ولكنها بالتأكيد ليست بثراء عائلة فهمي..

انتابه شعور بعدم الراحة بمجرد التفكير أنه قد يرتبط بامرأة أكثر ثراءَا منه بكثير، ثم عاد فطرد هذا الشعور عن نفسه.. إنها مغامرة جديدة من مغامرات حياته التي لا تنتهي، لقد تعوّد أن يخطو خطوات جديدة وجريئة مهما بدت لمَن حوله ضرب من الجنون.. طالما يتبع قلبه فإنه يرى كل ما يفعله هو عين الصواب.

أما عائشة التي قضت النهار بأكمله متحيّرة ماذا ترتدي وماذا تقول وكيف ستستقبل يوسف..

وقفت أمام المرآة تلقي نظرة أخيرة على هيئتها، اختارت فستان قد ابتاعته من سفريتها الأخيرة لباريس، تردَّدت كثيراَ عند شرائه.. لأن قماشه الحريري ذون اللون الذهبي وحزام التل الذي يعانق خصرها قد يجعله يبدو أنه صُمِّم خصيصًا لإمرأة سعيدة.. امرأة تحب وتضحك وتقبل على الحياة فتفتح لها ا لحياة ذراعيها، وهي لم تكن يومًا كذلك..

سخرت من نفسها عند شرائه، ولكنها اليوم تشعر أنها قد فعلت الصواب، فقد حان وقت ارتدائه.. ربما حان الوقت أن تكون امرأة سعيدة وأن تُقبل على الحياة فتفتح لها الحياة ذراعيها..

تمنَّت أنها لو كانت اليوم أكثر جمالًا.. لو أن جسدها كان أكثر أنوثة .. لو أنها كانت أصغر عمراَ..

تنهدت في استستلام وهي تتأكد من رسمة الريميل فوق جفنيها، ومن أن أحمر الشفاة الذي وضعته ومسحته عدة مرات لا يبدو صارخًا جدًا.. ألقت نظرة أخيرة على وجهها الهادئ في المرآة ثم همّت بالنزول إلى يوسف.

انتفض يوسف واقفًا من على مقعده عندما رآها.. اطلالتها الجميلة بدَّدت مخاوفه وأنهت شكوكه.. هدوئها الغير مفتعل والحزن الذي يستوطن ملامحها يجذبه إليها فيتبع قلبه في استسلام..

اقترب منها ولثم يدها ثم بادرها بالحديث قائلًا: " الحقيقة يا هانم أنا

مش عارف أبدي إعجابي بجمالك، ولا بجمال المكان الساحر ده ! "

ابتسمت عائشة في حياء وقد داعب عطره أنفها فشعرت بالسخونة تسري في جسدها ..

" أشكرك على كلامك الرقيق وعلى تلبية دعوتي النهاردة .. أتمنى ما أكونش إتأخرت عليك وجوّعتك "

علت وجهه الوسيم ابتسامة رائقة وهو يجيبها: " مجرد ما شوفتك نسيت كل حاجة "..

حاولت أن تخفي ارتباكها من وقع كلماته الساحرة عليها وهي تدعوه إلى تناول الطعام.. جلسا على المائدة وعائشة لا تأكل بقدر ما تمعن النظر فيه، تبتسم تارة وتغرق في الضحك تارة أخرى على تعليقاته الساحرة على اطلالتها وعلى قصرها وعلى الطعام الذي يأكلانه..

تجلس مشدوهة أمام قدرته العجيبة على التنقُّل بين مختلف المواضيع برشاقة، وتجاهد أن تخفي الانبهار الذي يعلو ملامحها أمام هذا الرجل العجيب الذي يجعل أنفاسها تتلاحق كلما اخترق جسدها بعينيه..

" الأكل لذيذ جدًا .. والمكان ساحر، والمشهد أدامي غاية في الجمال والرقة .. أنا بحسد نفسي على الدعوة دي "

احمرت وجنتا عائشة من الخجل وهي تجيبه: " طالما عجبك المكان.. يبقى لازم تتفرَج عليه كله "

وأخذته في جولة في قصرها الكبير، ويوسف منبهر بهذا البناء الفريد.. غرفة النوم التي كان تخص فيما مضى أحد ملوك الصرب.. والذهب

الذي يدخل في تكوين كل جزء من غرف القصر، والجدران المليئة بالزخارف والرسومات الأوروبية..

لم تشعر عائشة حينها أنها تُعرَف يوسف على قصرها بقدر ما شعرت أنها تعرف القصر على يوسف.. الرجل الذي حرَك مشاعرها الجامدة منذ سنين، وأيقظ في داخلها شئ لم تكن تعرف بوجوده من قبل..

أرادت أن تُري القصر الذي شهد ليالي وحدتها ودموعها أن الفرصة قد جاءتها لتصبح سعيدة .. أن في إمكانها أن تعيش الحب وتشعر أنها على قيد الحياة.

" اتفضل نشرب القهوة في الصالون.. "

" إسمحيلي، لما شوفت منظر النيل من على سور القصر الحقيقة حسيت بالسحر.. أفضَّل إننا نقف نشم الهوا بره على السور"

ابتسمت له عائشة ابتسامة حانية قبل أن تقول..: " زي ما تحب.. ".

****

منظر النيل الساكن في الليل يخطف الأنفاس، وحركته الهادئة تشكل نغمًا موسيقيَا بديعًا يُداعب مسامعهما.. نسمات الصيف المنعشة تلفح خديهما فتخلق فيهما شعوراً خفيفًا بالشمالة..

استند يوسف بذراعه إلى السور مواجهاً لعائشة، ثم قال: " يا بختك! النيل تحت أمرك، وقت ما تحبي تزويه ما بتتنقليش من مكانك "

قالت عائشة وهي تحاول أن تخفي ارتباكها من نظراته المُسدَّدة نحوها بإمعان..:

" مع إني ما بقفش على السور هنا كتير .. بس إنت عندك حق.. النيل فعلًا ساحر، كان لازم آخد بالي قبل كده "

" تسمحيلي أقولك حاجة ؟ "

" قول.. "

" فيكي شئ بيفكرني بأمي.. "

شعرت بشئ من الخيبة حاولت أن تخفيها قبل أن تسأله..:

" قصدك عشان فرق السن ؟ "

" أرجوكي ما تفهميش كلامي غلط، أنا أقصد الشخصية .. الطيبة والهدوء، أنا أمي الله يرحمها كان فيها كتير من الصفات دي وكان قلبها حنين .. كنت ساعات أحس إن قلبها ممكن يساع الدنيا كلها "

عاد وجهها مبتسمًا مثلما كان في أول الحديث، ثم أردف يوسف..:

" أ نا نظرتي في البشر عمرها ما بتخيِب، من أول ما شوفتك حسيت إن قلبك كبير وروحك فيها كتير من الهدوء.. والحزن كمان "

تلألأت عيناها بالدموع وهي تنظر إلى وجهه.. فلم يكن يوسف مخطئًا، إن الشرخ في روحها عميق.. استوطن ملامحها واستعمر أيامها..

أسرع وكفكف الدموع التي انسابت على وجنتيها بكفيه الضخمين..

ولأول مرة تشعر عائشة بنوع من الأمان، شعور لذيذ لم تختبره من

قبل، تنهّدت بإرتياح ثم تكلمت .. باحت بكل شئ..

حكت عن زواجها وحياتها التعيسة .. عن مقتل علي ثم طلاقها، عن القصر الفريد الذي لم يتبقّ من أخيها سواه فأصرت أن تتملكه وتسكن فيه بمفردها.. عن ليالي وحدتها وعذابها، عن السعادة التي لم تظن أنها يومًا ستعيشها.. عن الحب الذي رأته على المسارح وقرأت عنه في الروايات ولكنها لم تصادفه على أرض الواقع.. عن الفقد الذي اقتلع قلبها وعن الذكرى التي تطاردها.. حكت كل شئ حتى شعرت أنها فرغت من كل ما يُثقلها.

استقرت بجسدها على المقعد القريب وهي تقول: " ما أخبيش عليك إني دايمًا حاسة بالذنب من إني أكون أنا السبب في موت علي "

لحقها يوسف إلى مكان جلوسها ..:

" ده كلام مش صحيح، إللي حصل ما كانش ليكي أي إرادة فيه "

" بس أنا إللي شجعته إنه يتجوزها، أنا إللي دافعت عن اختياره قدام العيلة كلها "

"عارفة ؟ أنا لما أصريت إني أسافر إيطاليا أدرس المسرح.. كل العيلة عارضتني، وأبويا قاطعني وما قدرتش إني أطلب منه أي مصاريف عشان أسافر .. لكني أصريت وسعيت ورا حلمي، وقبل ما أخلص دراستي بعتولي تلجراف إن أبويا بيموت، سيبت كل حاجة ورجعت، بس للأسف.. مات قبل ما أوصل مصر بيومين "

لمعت عينا يوسف بالحزن ثم أردف..:

" كان نفسي أشوفه لأخر مرة وأطلب منه يسامحني، لكن والدتي أكدتلي إنه مات راضي عني.. ومع ذلك فضل جوايا شئ كان مخليني حاسس بالذنب، بعدها فكرت إنه إللي حصل مقدر ومكتوب.. ما كانش ليا إرادة فيه.. من الغباء إني أحس بالذنب أو الندم أو إني أستستلم للحزن.. الحياة بتمشي ولازم نكمل "

ابتسمت عائشة لا إراديًا عندما جاءها كلام يوسف، شعرت بسعادة غامرة عندما لمست في حديثه أنه يريد التخفيف عنها ..

حدجته بمكر ثم قالت: " زمان المدام قلقت عليك.. "

" زمانها في أمريكا مسويّة الهوايل.. الحقيقة إحنا انفصلنا من فترة "

تهلَّل وجه عائشة وشعرت أن قلبها يرقص وجاهدت وهي تحاول أن تفتعل اللامبالاة ..:

" خسارة .. أنا كنت أسمع إنكم بتحبوا بعض جدًا "

ابتسم يوسف في زهو عندما أحس بفرحتها التي تجاهد أن تخفيها..:

" الحقيقة يا هانم أكبر خطأ إن الشخص يتجوز من غير بلده.. لا العادات واحدة ولا الطباع واحدة، مفيش أحسن من الست المصرية، إنما الأجنبية توبة .. غلطة ما عادتش تتكرر "

تذكرت عائشة زيجة أخيها التعيسة ثم حدقت بالفراغ الماثل أمامها وهي تقول: " عندك حق "..

أخرج يوسف ساعته من جيب بنطاله وأمعن فيها لحظات، ثم قال " يا خبر.. الساعة بقت واحدة بعد نص الليل، إحنا ما حسيناش بالوقت

خالص "

هب واقفًا ثم أمسك كفها وطبع عليه قبلة رقيقة.. قبلة جعلت جسدها ينتفض..

" أنا بشكرك جدًا على الدعوة الرقيقة دي، وعلى الوقت الرائع ده.. ما تتصوريش أنا استمتعت قد ايه بالزيارة دي "

غرقت عينا عائشة في وجهه وقد تملَّكها شعور بالخيبة أن وقتها معه انتهي.. تمنَّت لو أن هذه الجلسة لا تنتهي، لو أن هذا الحديث لا ينقطع، لو أن هذا الوجه الساحر الماثل أمامها يرافقها في أيامها المتبقية على هذه الأرض.

ودعته ثم ظلت عيناها مُعلَّقة عليه وهي تراقبه وهو يبتعد شيئًا فشيئًا.. حتى خرج من بوابة القصر.

****

سلم يغمض لعائشة جفن طوال تلك الليلة، بقيت تتقلب على فراشها عشرات المرات .. تتذكر كل لحظة من مقابلتها مع يوسف، فتضحك.. وتستحي.. وتبتسم.. وتوشك على البكاء..، ازدحمت مشاعر كثيرة في صدرها وجال في خاطرها ألف تساؤل...

إلى أن غلبها التعب وأرخت جفنيها في استسلام وصوت آذان الفجر يتردَّد من بعيد.

استيقظت مفزوعة على صوت خادمها أبو القاسم يطرق الباب..

" خير يا أبو القاسم.. ايه إللي حصل ؟ "

" معذرة يا ست هانم.. بس الأستاذ يوسف وهبي واقف تحت بيقول إنه عايز يقابل حضرتك ضروري "

لم تصدق ما سمعته وخالجها شعور أنها ربما ما زالت نائمة تحلم، عادت فسألته بصوت نعس..:

" بتقول يوسف وهبي؟ إنت متأكد؟؟ "

" أيوة يا ستي.. واقف مستني تحت "

" هي الساعة كام دلوقتي ؟ "

" تسعة صباحًا يا هانم "

" طيب روح دلوقتي وبلغه إني خمس دقايق وهنزل له "

في لحظات قفزت مسرعة من على السرير غسلت وجهها ووضعت القليل من مساحيق التجميل، ثم ارتدت الروب الخاص بقميص النوم الذي يغلف جسدها .. وطارت إلى خارج غرفتها.

وقفت على أول السلم الذي يتوسط بهو القصر وأمعنت النظر فإذا بيوسف وهبي يقف عند الباب.. يرتدي القميص الذي كان يرتديه في سهرة الأمس، ولكنه هذه المرة بلا ربطة عنق، وبلا سترة بدلة .. شعره المموج قد زال عنه مفعول الفازلين فسقطت خصلاته تزين جبينه العريض، وقف ممسكًا بعض الأوراق وفي عينيه الزرقاء الكثير من

الحماسة والإصرار وقف بقامته الممشوقة وعضلاته المفتولة وطوله الفارع الذي يربك أعصاب عائشة..

" خير يا يوسف.. إنت كويس ؟ "

"pardon يا هانم.. أنا مؤكد أزعجبتك، لكن معايا حاجة لازم تشوفيها"

قطعت الدرج حتى وصلت أليه وأشارت له بيديها نحو حجرة الصالون..

" اتفضل نتكلم في الصالون "

أجلسها يوسف بجانبه على كنبة الصالون الأبيض، ثم سلَّمها مجموعة الأوراق التي كان يحملها..

" اتفضلي .. "

" ايه ده ؟ "

" دي الرواية الجديدة إللي هتتعرض على مسرح رمسيس، سهرت طول الليل أكتب فيها.. من وقت لما سمعتك بتحكيلي تفاصيل موت أخوكي علي وأنا الفكرة لمعت في دماغي وقولت إني لازم أسجِلها على الورق"

رفرف قلب عائشة وهي تستمع إليه، لم تتصور أن يوسف وهبي يملك هذا الإحساس العالي.. وهذه المُخيّلة الخصبة.. وهذا القلب النبيل..

"أرجوك تحكيلي تفاصيلها .."

وانطلق يوسف يحكي لها تفاصيل روايته الجديدة " أولاد الذوات " .. الشاب الذي هجر أهله وزوجته وأطفاله واندفع وراء غانية فرنسية

وتزوجها وعندما يكتشف خيانتها له يسعى ليقتل عشيقها فينتهي الأمر بأن يُزجّ في السجن، وعندما يخرج ويجد أن زوجته قد هجرته وأبناءه لا يعرفونه.. يُقدم على الإنتحار.

انخرطت عائشة في البكاء وهي تستمع إلى تفاصيل القصة، تذكرت مأساتها بكل تفاصيلها.. تذكرت آخر مرة رأت فيها علي، وطرق سعيد العناني الذي أيقظها مفزوعة من نومها.. وتذكرت الخبر الذي حتى الآن لا تستطيع تصديقه.. ومشهد جثة علي المُمدَّدة في ثلاجة الموتى ..

أمسك يوسف ذقنها الرقيق بكفه الضخم وهو يحاول أن يهدئها ..

" أرجوكي ما تبكيش، أنا كان غرضي إني أسعدك.. الرواية دي هتخلّد ذكرى علي، وهتوعِّي كل الشباب من خطر بنات الأجانب إللي بينصبوا عليهم بإسم الحب "

غاصت ببصرها في عينيه الحالمتين، ثم ألقت بنفسها في أحضانه وأغمضت عينيها وهي تشعر بأن كل الدمار الذي يسكنها قد هدأ الآن..

****

(١٢)

وقف أحمد عسكر مدير فرقة مسرح رمسيس متعجباَ يُحدِّج بهذا الوجه الواقف أمامه، وجه رائق وكأن كل متاعب هذه الحياة لم تمر أمامه.. وجمال من نوع خاص يبعث في النفس نوع خفي من السكينة والألفة..

" انتي مين يا آنسة ؟ وعايزة تقابلي الأستاذ يوسف عشان ليه ؟ "

أجابته الفتاة الماثلة أمامه بإرتباك..: " أنا .. أنا مفيدة غانم، الاستاذ يوسف منتظرني، قول له بس اسمي وهو هيعرفني "

" طيب إستني هنا شوية " ..

غاب لحظات ثم عاد وأردف: " اتفضلي الأستاذ يوسف منتظرك في مكتبه "

خطت بإرتباك نحو غرفة المكتب، رحّب بها يوسف بحفاوة، ثم أمر مدير فرقته أن يغلق الباب وهو يخرج..

" أهلاً مفيدة، شرفتي مسرح رمسيس.. إتفضلي اقعدي "

" أشكرك يا أستاذ، أنا مش عارفة أقولك ايه.. "

" ما تقوليش حاجة، الأستاذ فؤاد فهِّمني على كل حاجة.. قوليلي بقى.. أنا أسمع إنك تحبي الفن أوي "

اشتعل وجهها الهادئ بالحماسة وهي تجيبه: " أوي أوي يا أستاذ، أنا

لقّيت مسارح أوروبا كلها، ومفيش دار سينما هناك الا أما دخلتها.. أنا بهوى الفن أوي وحلمي إني أمثّل "

" وأنا متفائل جدًا بيكي.. حافظة حاجة تفرّجيني عليها ؟ "

" أيوة، دور ديدمونة في مسرحية عطيل.. "

ثم هبّت واقفة وهي تشدو بحوار الزوجة المظلومة التي ترجو زوجها أن لا يقتلها، واستحالت إلى شخصية أخرى.. شخصية لا يمكن أن تتخيل أنها هي نفسها تلك الهادئة المرتبكة التي كانت تجلس منذ لحظات..

اتّسعت عينا يوسف بالإنبهار وهو يشاهدها، كان حدسه ينبئه مسبقًا أنه أمام موهبة عظيمة.. نظرته الثاقبة في البشر لا تخيب.

" هايلة .. هايلة يا مفيدة، اندماجك في الشخصية مؤثر جدًا.. وإحساسك ينبض بالصدق "

تنهدت بإرتياح وهي تلقي بنفسها على المقعد مرة أخرى ..: " أشكرك يا أستاذ.. أشكرك جدًا "

" أ نا محتاج أمثالك من المواهب عشان يزيّنوا فرقتي، أنا مراهن عليكي.. وهدّيكي دور البطولة في رواية لسه ما إتمثلتش على مسرح رمسيس قبل كده.. رواية أنا لسه مألفها من فترة "

" اسمها ايه يا أستاذ ؟ "

" اسمها .. أولاد الذوات "

" أوعدك إني أكون عند حسن ظنك "

" اسمحيلي بس اسم مفيدة غانم ده مش اسم فني.. محتاجين اسم جديد، اسم يليق ببطلة مسرح رمسيس الجديدة "

رمقته بإستغراب وهيا تسأله: " اسم جديد زي ايه ؟ "

أمعن فيا لحظات قبل أن يقول " عزيزة .. عزيزة أمير ".

****

" والله تستاهل يا قلبي .. ليه تميل ما كنت خالي

إنت أسباب كل كربي .. وإنت أسباب ما جرالي "

دلفت فاطمة رشدي إلى غرفة الممثلات وهي تتمايل بغنج وتتغنّى بموال سيد درويش، شدَت إحدى الكراسي وجلست بجوار أمينة رزق..

" ما سمعتيش الحكاية الغريبة دي يا أمينة ؟ "

زفرت أمينة أنفاسها بضيق ثم سألتها: " حكاية ايه ؟ "

" قال بيقولوا عزيزة أمير إللي الأستاذ يوسف هيخليها بطلة الرواية الجديدة، اتطلقت من جوزها ورافضة ترجعله "

" طب وفيها ايه ؟ "

" يعني الأول الأستاذ يوسف طلَّق مراته وبعدين هيا اتطلقت من جوزها.. أنا بصراحة شايفة إنه متحمِسلها بزيادة أوي.. ده حتى مخلّيها بطلة الرواية من أول مرة تمثل، ده بيقولك كمان كذا حد شافهم وهما بيتقابلوا لوحدهم بعد البروفات "

اشتعل قلب أمينة وقد فهمت ما ترمي فاطمة إليه، ربما وقع يوسف بحب عزيزة أمير، وإن لم يكن قد وقع بحبها سيقع بحب امرأة أخرى .. كل نساء العالم سيلفتن نظره، وسيقع في حبهن إلا هي..

عادت ولعنت حظها الذي قادها إلى مسرح رمسيس وقلبها الغبي الذي تتلاحق دقاته في كل مرة تقع عيناها على يوسف..

ثم هبّت واقفة من على مقعدها وقالت: " أنا قايمة ماشية، أنا اتأخرت النهاردة في المرواح أوي "

زغرت زينب صدقي فاطمة بنظرة مؤنبة وهيا تقول: " عاجبك كده؟، هو إنتي ما ترتاحيش غير لما تنكدي عليها؟ "

" وأنا كنت قولت ايه يعني ؟! .. هي إللي كل شوية تتقمص وتاخد بعضها وتمشي "

ثم أطلقت فاطمة ضحكة رقيعة وأخذت تتغني " والله تستاهل يا قلبي .. ليه تميل ما كنت خالي.. " .

****

(١٣)

مسرح رمسيس – ليلة عرض مسرحية " أولاد الذوات "

وصلت المسرحية إلى نهايتها وضجت القاعة بالتصفيق، البناء الدرامي للرواية محكم والأداء التمثيلي للفرقة مبهر.. والجمهور متأثر بالمآساة التي جسدتها فرقة رمسيس للتو، أمسك يوسف بيد عزيزة أمير ثم رفعها عالياَ بزهو.. معلناً عن ميلاد نجمة جديدة على خشبة مسرح رمسيس، لقد راهن عليها وربح الرهان.. على الرغم من تجهّم وجه أمينة والغيرة التي تأكل قلب فاطمة وتعجب زينب صدقي .. نجحت عزيزة أمير في إثبات نفسها كبطلة في أول دور لها على خشبة مسرح رمسيس.

عائشة التي كانت تجلس في مكانها المعتاد، تتابع العرض بكل كيانها.. قلبها يرفرف وشعور كبير بالفخر قد تملَّكها.. سارعت إلى صالة الإستقبال لتلحق بيوسف وهبي وبقية المهنئين بالنجاح.

لمحها قادمة من بعيد بهدوئها الغير مفتعل والحزن الذي يستوطن ملامحها.. فاقترب منها وهمس..:

" ايه رأيك في العرض ؟ "

" بديع يا يوسف.. بديع، ما تتصورش أنا فخورة قد ايه "

قطع حديثهما الهامس رجل بدين قصير القامة يملك وجهًا محببَا تقفز منه البشاشة..:

" رواية عظيمة طبعًا يا سي يوسف، بس إستحمل بقى الهجوم إللي هيبقى عليك.. الجالية الفرنسية في مصر هتعدها إهانة كبيرة، ما هو مش كل الفرنساويات زي الفرنساوية إللي إنت طلَّعتهالنا في المسرحية دي "

" أشكرك يا فكري باشا، لكن المقصود هنا في الرواية هو الهجوم على الأجنبيات إللي بيضحكوا على شباب مصر بشكل عام.. وأكيد لا نقصد الإهانة لأي بلد "

نظر يوسف إلى عائشة وهو يقول: " فكري باشا أباظة رئيس تحرير مجلة المصور .. " ثم عاد فقدَّمها إلى فكري باشا ..

" عائشة هانم فهمي يا فكري باشا .. صديقة العائلة "

تهلل وجه فكري أباظة وهو يمعن النظر في عائشة : " فرصة سعيدة جدًا يا هانم.. "

" أنا أسعد يا باشا .. أشكرك جدًا "

وتملَّك عائشة شعور بالارتباك من نظرات فكري أباظة، وشعرت أنه ربما قد فهم من أين استوحى يوسف وهبي موضوع روايته الجديدة..

ولم تكن نظرات فكري أباظة وحدها التي أربكتها، بل نظرات كل الموجودين في قاعة الإستقبال..

أرادوا التعرف على السيدة التي جعلت يوسف وهبي يترك كل ضيوفه ويلازمها..

شعرت بعدم الراحة قبل أن تهمس ليوسف: " أنا لازم أمشي دلوقتي.."

" مستعجلة ليه ؟ "

" معلش أفضل إني ما أقعدش هنا كتير .. "

أجابها يوسف وقد شعر بإرتباكها: " على راحتك.. بكرة أنا عامل حفلة في الفيلا بتاعتي، عازم فيها أصدقائي المقربين.. لازم تيجي وأشوفك .. الساعة ٨ "

ابتمست في خجل وهي تجيبه: " d'accord " .

****

فيلا يوسف وهبي -شارع عبد الخالق ثروت

لم يختلف الأمر كثيراَ في الحفلة التي أقامها يوسف وهبي عن الإستقبال الذي أقامه بعد عرض المسرحية .. ولم يختلف شعور عائشة أيضًا، فزاد ارتباكها وهي تواجه أصدقاءه الكثيرين الذين قد واجهت بعضهم من قبل في حفل الإستقبال.. مشاهير الفن والأدب والصحافة والسياسة..

تجلس منزوية تتابع يوسف وهبي وهو يقابل ضيوفه ويرحب بيهم، ويزداد انبهارها بحديثه المعسول ورشاقة أسلوبه.. فيباغتها شعور بالخوف من مشاعره تجاهها، هل ينظر إليها كما تنظر إليه ؟ .. إن شعورها نحوه قوي.. جارف .. مثل التيار الذي لا تستطيع ملاحقته.

أطلقت بصرها وهي تراقبه يتحدث مع مختلف النساء، يضحك مع إحداهن ويهمس لأخرى .. فتشعر وكأن بركانًا قد تفجر في رأسها..

اقتربت منها سيدة جميلة أنيقة في مثل عمرها وجلست بجانبها ..:

" أنا مؤكد شوفتك قبل كده يا هانم.. لو ما كانتش ذاكرتي خايناني "

ابتسمت لها في افتعال ثم أجابتها..: " ما أفتكرش، بس أنا أعرفك بالتأكيد .. السيدة روزا اليوسف "

" طيب وإنتي ؟.. "

" عائشة فهمي.. "

رفعت روز اليوسف حاجباها بدهشة: " أوه بالتأكيد .. عائشة هانم فهمي، مش قولتلك إني شوفتك قبل كده، يمكن اتقابلنا في حفلة وأنا ناسية "

أجابتها عائشة وهي لاهية تراقب يوسف: " يمكن .. "

بذكاء شديد استطاعت روز اليوسف أن تلمح ما يعتري عائشة من شعور تجاه يوسف..

اقتربت منها ثم همست: " يوسف وهبي شاطر في حاجتين.. التمثيل والضحك على الستات "

لاحظ يوسف من بعيد تجهّم وجه عائشة التي استوطن الضيق صدرها إثر الكلمات التي سمعتها، فسارع واقترب منها..

" pardon يا عيشة هانم.. أنا متأسف إني سايبك لوحدك ومشغول مع الضيوف، أديكي شايفة مش ملاحق أقف أتكلم مع مين ولا مين "

ثم سدَد نظرة ثاقبة تجاه روز اليوسف وأردف: " أنا شايف إنكم

اتعرفتوا.. يا ترى روزا قالتلك ايه عليا ؟ "

ضحكت روزا بمكر وهي تجيبه: " أنا كنت لسه بشكر فيك خالص يا يوسف.. "

" روزا يا ستي سابت التمثيل وامتهنت الصحافة.. نسيت العيش والملح إللي ياما أكلناه في المسرح "

" أنا سيبت الشهرة من قبل ما تسيبني، مجلة روز اليوسف دلوقتي بقى اسمها مسمّع زي الطبل "

" طيب يا ستي التمثيل خسرك والصحافة كسبتك.. عن إذنك بقى هاخد منك عيشة هانم أعرفها على بقية أصدقاءنا "

وتبعته عائشة في استسلام وهي لا تستطيع محو آثار كلمات روزا عن صدرها.. ربما كلامها صحيح، يوسف وهبي يخطب ود أي امرأة تقترب منه، لا يحبهم.. وإنما يتسلى معهم ..، ولكنها لا تراه كذلك.. لا تراه مجرد تسلية أو مجرد طيف عابر في حياتها، لقد بدأت تتعلق به وكأنه خيط الوصل بينها وبين السعادة .. وبينها وبين الحب .. بينها وبين الحياة.

قدمها إلى شاب وسيم يقف في هدوء إلى جوار النافذة يدخن سيجارة وينفث الدخان في الهواء بإنتشاء..:

" صديقي الصحفي محمد التابعي.. أظن إنكم هتنسجموا جدًا مع بعض "

ابتسم لها محمد في ود: " تشرفنا يا هانم .. "

ولم يكن يوسف مخطئًا، فقد قضت عائشة ساعتين تثرثر وتضحك مع محمد التابعي حتى شعرت أنها نسيت المكان ونسيت كلمات روز اليوسف.. لمست فيه شيئًا محببًا، تمنت لو كان أخوها بعد علي.. شعرت نحوه بإرتياح كبير وبأنها عثرت على صديق حقيقي.

تقدم إليهم يوسف بخطوات ثابتة ثم سألها مداعبًا: " ايه؟ يا ترى محمد التابعي نسّاكي الحفلة كلها ؟ "

" الحقيقة محمد كلامه ما ينشبعش منه أبدًا.. "

ابتسم لها محمد وهو يقول: " الحقيقة يا هانم أنا إللي في قمة سعادتي إني إتعرفت عليكي، وأتمنى إننا نفضل دايمًا على تواصل.. عن اذنكوا بقى عشان أنا مرتبط بمعاد ولازم أمشي دلوقتي "

ثم انصرف تاركًا يوسف وعائشة واقفين على النافذة..

"مش ناوية تقوليلي بقى روزا قالتلك ايه عني ؟ "

أمعنت عائشة النظر في وجهه الوسيم لحظات قبل أن تقول: " قالتلي إنك شاطر في حاجتين التمثيل والضحك على الستات "

أطلق يوسف ضحكة مدوية في الهواء كشفت عن نابيه.. ضحكة أذابت قلب عائشة التي حدجته بإستنكار وهي تقول:

" ايه؟ عجبتك النكتة أوي ؟ .. "

" أنا آسف ما أقصدش.. أصل روزا دي هزارها تقيل بشكل ! "

افتعل الجدية وهو ينظر في وجهها بإمعان حتى أربكها ثم سألها: " ويا

ترى إنتي صدقتيها ؟ .. "

" من إللي أنا شوفته حسيت إنها ما بتكدبش .. "

" شوفتي ايه ؟ .. "

" شوفت إن مفيش ست في الحفلة هنا ما وقفتش معاها وما هزرتش معاها.. شوفت إن لسانك حلو مع أي واحدة تقرب منك "

علت وجهه الوسيم ابتسامة خيلاء وقد لاحظ غيرتها ..:

" يا هانم.. أنا فنان وليا معجبات كتير، مش معقول أعاملهم بجفا أو أتهرب منهم.. الفنان دايمًا لازم يكون قريب من جمهوره ويتفاعل معاهم سواء رجالة أو ستات "

" يمكن .. "

" لا ده أكيد، ده جزء من متاعب الشهرة ولازم نتعامل معاه .. "

" بس واضح إنه جزء متعب أوي.. "

عاد يوسف فانخرط في الضحك " تعب لذيذ جدًا.. "

حدقت عائشة في الفراغ الماثل أمامها ثم قالت:

" تعرف إني نفسي مرة أجرب أمثل .. "

" ممم تمثلي! .. " لمعت عيناه ثم أردف: "اسمعي.. إنتي وراكي حاجة بكرة الساعة ٦ ؟ "

" عشان ايه ؟ "

" هنمثل ! ".

****

(١٤)

لم تصدق عائشة عينيها ويوسف يقف أمامها مرتديًا الجلباب البلدي وفوق رأسه الطاقية وعلى رقبته الشال.. شنبه الضخم المستعار جعلها تغرق في نوبة من الضحك حتى دمعت عيناها..

" ايه إللي إنت عامله في نفسك ده يا يوسف ؟! .. "

ابتسم في زهو وهو يجيبها: " دي ملابس الشخصية بتاعتي "

سلَّمها كومة من الملابس، ثم أردف: " إتفضلي، ودي ملابس شخصيتك.. "

" أيوة هنعمل بيهم ايه يعني ؟ .. "

" هنمثل بيهم.. "

" فين ؟ في المسرح ؟! "

" لأ.. في الشارع، استعجلي بس وأنا هستناكي بره عند السور "

وقفت عائشة أمام المرآة وهي لا تصدق ما ترتديه، جلباب بلدي مزركش وملاية لف وبرقع يغطي وجهها .. ترددت كثيراً قبل أن تنزل من غرفتها وسط نظرات الخدم المتعجبة.. خرجت إلى يوسف الذي كان ينتظرها عند السور.

تهلل وجهه عند رؤيتها ثم صاح " أيوة كده، حاجة آخر أبهة.. "

غرقت في الضحك قبل أن تجيبه: " أنا مش مصدقة إللي أنا لابساه ده،

الخدامين في القصر إفتكروني اتجنيت.. "

" مفيش أحلى من الجنان..: "، ثم أمسك كفها وهو يسحبها ورائه..

سحبت كفها من كفه بذعر قبل أن تقول: " إحنا هنروح فين.. أنا أتكسف أخرج الشارع كده، أنا شايلة هم لو حد شافنا دلوقتي هيقول ايه ؟ "

" محدش هيتعرف عليكي من البرقع إللي إنتي لابساه ده.. وما تخافيش المكان إللي هنروحه مؤكد مش هنقابل حد نعرفه"

" إحنا هنروح فين ؟.. "

" هاتي إيدك بس وما تخافيش.. "

ثم عادت وعانقت كفه الضخم بكفها، وتبعته في إستسلام .. وهي تشعر أنها طفلة صغيرة تمسك بيد والدها الذي يعرفها إلى العالم.. يسحرها شعور الإطمئنان الذي يخلفه وجوده في قلبها، على الرغم من أنه يصغرها بالسن.. إلا أن شعور قوي يتملكها أنها طفلته.. وأنها لا تريد لكفها أن يفارق كفه إلى الأبد.

سارا بعيدًا عن القصر حتى وصلا لإحدى تجمعات المراكب النيلية على ضفاف النيل..

انحنى يوسف لأحد المراكبية وهو يقول: " ما تاخدناش يا ريس أنا والست بتاعتي للناحية التانية في بولاق.. "

أمعن فيهم المراكبي يتفحصهم قبل أن يلقي بالسيجارة التي في يده في النيل وهو يقول: " اركبوا.. "

وأبحر بهم المركب حتى وصل إلى الضفة الآخرى.. ترجّلا وأكملا المسافة سيراً إلى سوق السبتية، وعائشة مدهوشة من هذا العالم الغريب الذي لم تسبر أغواره يومًا، تمسك بكف يوسف بحرص شديد تخشى أن يفلت يديها.. فيضيعها وسط هذا الزحام.. وتضيع.

افتعل الجدية وهو يقول لها: " اسمعي.. أهم حاجة في التمثيل هو الاندماج.. مش عايزك تحسّي إنك بتمثلي، اندمجي في الشخصية .. إنسي كل حاجة وإتعاملي طبيعي جدًا.. أبوخ حاجة في الممثل إنه يبان إنه بيمثل " .. ابتسمت ببلاهة وهي تومئ له برأسها وكأنها استوعبت كل ما قاله.

ثم غاصت ببصرها وسط هذه الأعداد الغفيرة من البشر، بعيدًا عن القصور وأوساط الطبقة الراقية.. حياة أخرى وهموم أخرى.. تراقب يوسف بتعجب وهو يختلط بهذا العالم وكأنه قد ولد فيه، يناقش الباعة ويمازحهم ببراعة شديدة كما كان يمازح أصدقائه من البشوات والشخصيات المرموقة في حفلته بالأمس..

" يا لهذا المخلوق العجيب!.. " حدَّثت نفسها..

وقفا أمام إحدى السيدات التي أخذت تتلفت حولها وكأنه تبحث عن شئ منها، عندما وقعت ببصرها على عائشة تهلَّل وجهها واقتربت منها..

" والنبي ياختي تكسبي، ما تشيّلنيش القفة دي على دماغي.. محدش راضي يُقف لي خالص"

رمقت عائشة يوسف وهي تضحك من وراء برقعها، فهز يوسف رأسه

ايجاباً إشارة منه أن تستجيب لطلب السيدة..

اندمجت عائشة في تأدية شخصيتها وهي تقول للسيدة: " أوي أوي ياختي.. تحت أمرك " ثم رفعت القفة بصعوبة حتى نجحت في وضعها على رأس السيدة التي صاحت قائلة: " ان شالله تعيشي ياختي.. إلهي يسترك "..

ولم يتمالك يوسف نفسه من الضحك وهمس لعائشة: " طب ما إنتي طلعتي ممثلة شاطرة أهو، بس ناقصك شوية جرأة كده "

رمقته عائشة بتحدي وانطلقت في السوق تحادث الباعة وتمازحهم.. تسأل عن الأسعار وتفاصل فيها، وتنخرط في أحاديث جانبية مع النساء..

جذبها يوسف من ذراعها برفق: " بس خلاص كفاية كده، إنتي أثبتّي نفسك كممثلة عظيمة.. تعالي نريح شوية.،. ايه ما تعبتيش؟ "

ضحكت في سرور قبل أن تجيبه: " الحقيقة أنا هويت التمثيل أوي.. بس تعبت من المشي فعلًا "

أخذها وسارا ناحية إحدى مطاعم الفول الشعبية، تناولا وجبة دسمة حتى شعرا بالإمتلاء.. ثم عادا أدراجهما إلى الضفة الأخرى .. جهة الزمالك ..حيث الحياة داخل جدران القصور وفي أوساط الطبقة الراقية.

وقلب عائشة يرفرف، لقد أحست أنها كسرت الروتين الجامد في حياتها.. الروتين الذي يقتلها ببطء ويستعمر أيامها، كم آنسها أن ترى وجوه جديدة.. وحياة جديدة.. وهموم أخرى تحملها قلوب البشر على

هذه الأرض..

وزاد قلبها تعلقًا بيوسف.. تنسب له الفضل بالشعور بالفرح الذي لم تختبره يومًا، الشعور بالإطمئنان .. الشعور بأنها على قيد الحياة.

عادا إلى قصرها وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، مرت الساعات الفائتة وكأنها حلم جميل تخشى عائشة أن تستيقظ منه..

ألقت بنفسها على المقعد القريب من سور القصر ورفعت البرقع عن وجهها ثم قالت: " أنا عمري في حياتي ما انبسطت بالشكل ده.. "

لحقها يوسف وجلس بجانبها..: " وده المهم.. إنك قدرتي تعيشي لحظات حلوة تفتكريها طول العمر.. "

غرقت عيناها في وجهه الوسيم تتأمله.. شعرت بالحرارة تسري في جسدها وأنفاسها تتلاحق، صوت دقات قلبها كاد أن يثقب أذنيها والعرق الساخن قد أندى جبينها..

استجمعت قواها ثم قالت فجأة ..: " أنا بحبك يا يوسف.. "!!

****

(١٥)

مسرح رمسيس – شارع عماد الدين

دلف يوسف وهبي إلى المسرح في ساعة متأخرة من الصباح على غير عادته، سهرة الليلة الفائتة كانت جميلة ومرهقة..

اصطدم بمدير فرقته أحمد عسكر عند الباب..

" صباح الخير يا أحمد.. "

" طب قول مساء الخير.. قرّبنا على الضهر"

" يا سيدي صباح أو مسا .. المهم إنه يكون خير "

" مش باين إنه خير خالص.. "

" ليه جرى ايه ؟ "

" عزيزة أمير مستنياك في المكتب من ساعتين ودموعها ما نشفتش على خدها، قال لازم تقابلك ضروري.. "

زفر يوسف أنفاسه في ضيق قبل أن يقول: " هي الفرقة دي مشاكلها ما بتخلصش! وحياتك بس خليهم يعملولي فنجان قهوة ويبعتهولي على المكتب "

دخل إلى المكتب فإذا بعزيزة أمير تجلس في أحد الأركان منزوية ووجهها الرائق قد تعكَّر..

" ايه خير يا عزيزة؟ أحمد عسكر قلقني لما قاللي إنك بقالك ساعتين مستنياني.."

انفجرت في البكاء عندما شاهدته، ثم عادت وافتعلت الثبات ..

" بصراحة يا أستاذ أنا جيت أبلغك بقراري إني هسيب الفرقة "

" تسيبي الفرقة ليه ؟ هو ايه إللي كان حصل بس ؟ "

ترددت قليلًا قبل أن تجيب ثم حزمت أمرها وقالت: " بصراحة في كلام ماشي هنا في الفرقة.. كلام بطال.. عني أنا وإنت "

" كلام زي ايه يعني .. ؟ "

" يعني كلام إننا بنترافق.. ده غير التلقيحات إللي بسمعها من الناس إللي هنا "

ضرب يوسف بكفه على جبهته في حنق وقد فهم مصدر هذا الكلام، فاطمة رشدي لا غيرها.. لا تخفى عليه غيرتها وأساليبها التي تمتهنها لتحصل على ما تريد.. مؤكد أن النار اشتعلت فيها عندما أسند بطولة المسرحية لعزيزة أمير.

جلس إلى جوار عزيزة وأخذ يخاطبها في لين ..:

" اسمعي يا عزيزة، المهنة دي على قد ما فيها ميزات على قد ما فيها عيوب، إنتي عارفة كمّ الكلام إللي طلع عليّا من ساعت ما بدأت أمثل وعملت الفرقة دي ؟.. لكن الكلام ده عمره ما أثَّر عليا ولا أخَّرني عن شغلي.. سيبي إللي يتكلم وركزي إنتي في فنك.. "

" يا أستاذ أنا ست.. أي كلمة تمّسني، أنا بعتذرلك حقيقي مش هقدر أكمل "

" طيب لو خرجتي من هنا هتروحي فين؟ .. فرقة تانية؟ فرقة رمسيس هيا الأولى دلوقتي، وصدقيني دي حقيقة مش غرور"

عاد وجهها رائقًا مثل ما كان قبل أن تقول: " أنا عيني على السينما.. الأستاذ وداد عرفي كاتب قصة جنان قررت اني أنتجها "

حدَّجها يوسف بإستنكار ثم قال: " اسمحيلي.. حد يسيب المسرح وهتاف الجماهير ويروح للسينما الصامتة إللي من غير روح؟ أنا مقدرش أتخيل نفسي بمثل من غير ما أتكلم وأعبّر وأسمع تفاعل الجماهير معايا "

" بالعكس السينما دي هي السحر الحقيقي، المستقبل للسينما يا أستاذ.. وبكرة تشوف ".

****

لم تكد عزيزة أمير تغادر المكتب حتى دلف عزيز عيد إليه..

هب يوسف واقفًا: ..: " أيوة أيوة يا أستاذ، أنا عارف إني اتأخرت على البروفة النهاردة.. أنا جاي حالًا "

أطرق عزيز برأسه في أسى ثم جلس على إحدى المقاعد..

" اقعد يا يوسف، أنا عايز أتكلم معاك في مسألة مهمة.. "

" تحت أمرك يا أستاذنا.. "

" انت مش تحبّ لي الخير؟.. وتتمنالي إني أكون سعيد ؟ .. "

" ودي عايزة كلام.. إنت في مقام أخويا الكبير وعمري ما أكرهلك الخير "

زفر ثم أردف: " طيب أنا جيت أبلغك إني هتجوز.."

" مبارك يا أستاذ عزيز.. " حدَّجه بمكر ثم أردف: " ويا ترى العروسة تبقى مين؟ "

" فاطمة رشدي.. "

صدمت الإجابة يوسف رغم أنه كان يتوقعها، ربما لم يشأ أن يصدقها..

" فاطمة رشدي بتاعتنا ؟ العيلة أم ١٩ سنة ؟! "

احمر وجه عزيز وهو يقول حانقًا: " أيوة العيلة أم ١٩ سنة، هتجوزها على سنة الله ورسوله.. "

تجهم وجه يوسف: " ربنا يهنيك يا أستاذنا.. انا مقدرش أقف في طريق سعادتك"

عاد عزيز وتمالك أعصابه..: " أنا كنت جاي أبلغك إن إحنا الاتنين هنسيب الفرقة.. "

شعر يوسف أن الخبر نزل عليه كالصاعقة، لن يضره في شئ أن يتزوج عزيز عيد بفاطمة رشدي، ولكنه لم يتوقع أن فاطمة قد تكون سببَا مباشرَا في أن يخسر مخرج فرقته وشريك نجاحاته..

صاح يوسف: " يعني ايه تسيبوا الفرقة؟ يا أستاذ عزيز إحنا بانيين المكان ده مع بعض، أنا لسه بقولك إني بعتبرك أخويا الكبير! "

"إهدى بس يا يوسف، أنا مش هسيب الفرقة وأروح مكان تاني.. أنا هأسَس فرقة خاصة بيا "

" قصدك بيها.. العيّلة إللي من دور ولادك إللي لفت عليك عشان تبقى نجمة.. "

انتفض عزيز من على مقعده وقد تفجر الدم في عروقه..: " ولا كلمة زيادة.. أنا حر في حياتي محدش يقدر يقولي أعمل ايه وما أعملش ايه.. إ وعى تنسى نفسك وتتعدَّى حدودك معايا "

عاد يوسف فتدارك خطأه .. لم يقصد إهانة عزيز وهو يعلم جيدًا مكانته، ولكنه يتمزق وهو يرى الكهل الجالس أمامه قد وقع فريسة طموح شابة صغيرة قد تفعل أي شئ من أجل أن تصل إلى النجومية..

" أنا آسف يا أستاذ.. أنا ما أقصدش، أنا كان غرضي أحذرك.. طيب أقعد ارتاح بس وهدّي أخلاقك "

ألقى بنفسه على المقعد مرة أخرى ثم زفر: " أنا مش محتاج تحذيرات من حد، أنا سني خمسين سنة.. يعني فاهم وواعي أنا بعمل ايه كويس.. كل إللي طالبه منك إنك تتمنّالي الخير وبس.. "

فتح يو سف درج مكتبه وأخرج منه مفتاحًا صغيراً ناوله لعزيز..

" اتفضل يا أستاذ ده أكبر دليل إني فرحان لك وأتمنالك الخير "

أمعن فيه لحظات قبل أن يأخذ:ه " ايه ده ؟ "

" ده مفتاح شقتي إللي في وسط البلد، تقدروا تُعدَّوا فيها لحد ما تدبروا أموركم.. أنا عارف إن الأوضة إللي إنت ساكن فيها مش هتنفع "

طأطأ عزيز وجهه في خجل وهو يشكره.. شعر بالحرج أن ضعفه قد تعرى أمام يوسف وهبي وأمام كل العاملين بالفرقة.. إنه يحب فاطمة رشدي لدرجة أنه سيلَبي لها كل ما تطلب.. سيجاري طموحها الذي لا نهاية له.. وسيتخلى عن هيبته وكرامته وعن أي شئ قد يمنعه من أن يكون بجانبها.

رمقه يوسف بشفقة وهو يهنئه: " ألف مبروك يا أستاذ.. ربنا يهنيكم "

غمغم عزيز بآسى: " الله يبارك فيك.. ".

****

(١٦)

بحيرة قارون – الفيوم ابريل ١٩٢٩

توقفت السيارة أمام البحيرة الخلابة، وجلس العاشقان فيها يتأملان جمال المشهد القائم أمامهما..

مر عامان كالحلم الجميل.. عامان من اللقاءات السرية والأشواق المتبادلة ونار اللهفة التي لا تخبو.. عامان وقلب عائشة يرفرف ويزداد تعلُّقًا بيوسف.

شعور غريب بالخوف يلازمها كلما ازدادت تعلقًا به.. وكأنه سيختفي.. سيرحل.. ستستيقظ يومًا ما ولن تجده.. وسينقطع الخيط الوحيد الذي يربط بينها وبين الحياة.

إنها تحب ولكنها لا تطمئن.. تلك هي المعضلة، ربما لو كانت أجمل أو أصغر سنًا.. ربما لو لم يكن يوسف بهذا السحر وبهذه الجاذبية.. لو كان رجلًا عاديًا، ربما حينها كانت ستشعر بالسعادة الكاملة.. سعادتها ناقصة، لحظات قصيرة تسرقها قبل أن يزورها الخوف ويباغتها القلق..

دست رأسها في أحضان يوسف وكأنها تختبئ من نفسها ومن مخاوفها وتساؤلاتها..

" يا ريت لو الزمن يقف بينا في اللحظة دي.. ما أفتكرش إني هعوز حاجة تانية من الدنيا أكتر من كده.. "

طوقها يوسف بذراعه في حنان..: " اللحظات الحلوة بتمرّ بسرعة مع

الأسف، ممكن نعيش عمر بحاله على لحظة حلوة حصلت من سنين.. "

" أتمنى إني أعيش عمري كله معاك يا يوسف، ما تفارقنيش ثانية.. أتمنى إني ما أخافش، بيتهيألي ساعات إني هغمض عيني وأفتحها ألاقيك اختفيت.. يا ريتنا نفضل طول العمر مع بعض"

" يبقى نتجوز.. نبقى مع بعض قدام الدنيا كلها "

اتَّسعت عيناها من الدهشة وكأنها قد اكتشفت شيئًا جديدًا للتو، إنها تحب يوسف وهبي لكنها لم تفكر يومًا في الزواج منه.. فشل زواجها الأول ما زال يطاردها.. والخوف ما زال يستوطن صدرها.. الخوف من أنها ليست بالجمال الكافي.. الخوف من أن عمرها سيناهز الأربعين قريبًا.. الخوف من سحر يوسف وجاذبيته.. ومن أنه سيتركها يومًا ما وسينقطع الخيط الوحيد الذي يربط بينها وبين الحياة..

عادت ودسّت رأسها في أحضانه بقوة وكأنها غريق يتعلق بالقشة التي ستنجيه.. أمعنت في وجهه لحظات ثم قالت:

" يا ريت يا يوسف.. يا ريت ".

****

منزل عائلة فهمي - باب اللوق

رفعت النبيلة عزيزة فهمي حاجباها بإستنكار وصاحت في شقيقتها..:

" تتجوزي مشخصاتي؟! إنتي اتجنيتي؟! "

" يوسف فنان ومن عيلة كبيرة.. ما يعيبوش أي شئ "

" يعيبه إنه مشخصاتي وبتاع ستات.. على آخر الزمن هتتجوزي شاب أصغر منك؟ "

" أنا بحبه وما يهمنيش أي حاجة تانية.. إفهميني يا عزيزة أنا عمري ما قابلت راجل زيه.. إحنا الاتنين خلاص اتقفنا على الجواز"

وهي تهمّ بالإنصراف قبل أن تلحقها شقيقتها..

" أرجوكي ما تمشيش يا عزيزة.. أنا جاياكي النهاردة عشان موافقتك تهمني، يوسف على وصول ومش عايزاه ييجي يتحرج "

زفرت وهي تتأمل وجه شقيقتها اليائس، أشفقت عليها وقد شعرت بتعلُّقها الشديد به..:

" خلاص، إنتي حرة .. بس طالما هتتجوزيه لازم يفكر إنه يسيب شغلانة الفن وكار المشخصّاتية ده.. لازم يعرف هو هيناسب مين كويس "

أجابتها عائشة بإرتباك: " معتقدش يوسف هيوافق على حاجة زي كده، إنتي ما تعرفيش هو بيهوى الفن قد ايه "

" والله لو بيحبك صحيح وشاريكي.. هيسيب أي حاجة عشانك "

قطع حديثهما صوت جرس المنزل.. لحظات ودلف يوسف إلى مكان جلوسهما بعد أن استقبله الخادم..

" بونسوار يا هوانم.. "

قفز قلب عائشة وانتفضت من على مقعدها وركضت إليه تستقبله..:

" بونسوار يا يوسف، اتفضل.. "

حدَّجتها أختها بإستنكار قبل أن تتفحص يوسف وهبي الذي اقترب منها وهمّ أن يقبل يدها..

" بونسوار عزيزة هانم.. ما تتصوريش أنا كان نفسي أقابلك من زمان إزاي.. "

لم تستطع النبيلة عزيزة أن تخفي افتتانها بأسلوبه وجاذبيته وزاد بداخلها شعورها بالإشفاق على شقيقتها الصغرى..

" بونسوار يا يوسف.. أهلًا بيك شرفتنا "

" الشرف ليا يا هانم.. "

" الحقيقة أنا أعرف تفيدة هانم والدتك وقابلتها أكتر من مرة زمان، رحمة الله عليها.. ست في غاية الكمال والرقة.. "

ابتسم يوسف بأسى وقد تذكر حزنه على والدته: " أشكرك يا هانم.. "

تنفَّست عائشة الصعداء وهي تراقب الحوار الدائر بين يوسف وشقيقتها، لباقة يوسف في الحديث كفيلة أن تقف في وجه أي تصادم قد يحدث..

" اسمع يا يوسف، خليني أكون صريحة معاك.. أنا ما عنديش أي مانع في إنكم تتجوزوا، أتمنالكم السعادة من كل قلبي .. لكن في حاجة لازم تحطها في اعتبارك "

" ايه هي ؟.. "

" هيا إن شغلتك في الفن بكل صراحة تتعارض مع مركز عائلتنا الإجتماعي.. عائلة فهمي عائلة كبيرة ليها اسمها وسمعتها، جوازك من أختي ممكن يتم في حالة واحدة.. إنك تسيب الشغلانة دي "

أكثر ما صدم يوسف في حديثها هو أنه ظن أن هذه النظرة للفن قد ولَّت وانتهت، انتهت بموت أبيه الذي قاطعه لسنوات عندما علم بدراسته للمسرح.. وبزيارة الملكة نازلي لمسرحه.. انتهت بالنجاح الذي

حققه وبهتاف الجماهير الذي لا يتوقف.

" pardon يا هانم.. اسمحيلي إني أعارض رأيك ده، الفن هو من أسمى وأعظم المهن.. على خشبة مسرحي ما بيتقدمش غير الأعمال الهادفة وبس.. في أوروبا بينظر إلى الفنان على إنه شخص عظيم.. يؤدي رسالة عظيمة وهي توعية الناس والسمو بوجدانهم.. "

" كل الكلام ده ما يهمنيش في شئ، إحنا هنا في مصر.. الوضع يختلف، وأنا ما زلت عند رأيي "

انتفض يوسف واقفا قبل يقول: " اسمحولي أستأذن.. مرتبط بمعاد مهم"

شعرت عائشة أن آمالها قد تحطمت أمام تعنُّت شقيقتها وكبرياء يوسف المجروح، لحقته عند الباب وهي تقول..:

" أرجوك يا يوسف ما تضَّايقش، أنا بحبك وعمري ما هقدر أسيبك.. "

ربت على كتفها في رفق: " بعدين يا عيشة.. بعدين نتكلم "

ظلت تراقبه وهو يختفي من أمامها وقد عاودها الخوف.. الخوف من أن يتركها .. من أن تستقيظ يوماً ولا تجده .. من أن يفلت يدها فيضيعها .. وتضيع.

صاحت في شقيقتها ..: " ليه قولتيله الكلام ده؟، أكيد اعتبرها إهانة.. يوسف عمره ما هيفكر يسيب الفن "

حدقت فيها لحظات قبل أن تقول: " لو بيحبك صحيح وشاريكي .. هيسيب أي حاجة عشانك ".

****

اتصلت به عشرات المرات في مكتبه وفي المسرح وفي منزله، ولا يأتيها أي رد.. يوسف وهبي غير موجود.. وكأنَّ أسوأ كوابيسها قد تحقق.. لقد اختفى ولا تستطيع أن تجده.

بالتأكيد حديثه مع شقيقتها قد أثقل نفسه.. ولكنها أكدت له أنها تحبه.. لن تتخلى عنه.. لن تفلت فرصتها الأخيرة في أن تشعر بالسعادة.

أسبوعان وهي تمر بسيارتها على مسرح رمسيس الذي أغلق أبوابه.. المرة الأولى منذ سنين، ترى ماذا حدث؟ أين اختفى يوسف وهبي وأعضاء فرقته؟ ..

أمسكت رأسها الذي أثقلته التساؤلات.. لم تفلح المسكنات في تخفيف الصداع الذي يعتريها.. تشعر بدوار يداهمها اليوم.. لا تقدر على الوقوف..

ألقت بجسدها المُنهك على السرير.. ستحاول عبثًا أن تستغرق في النوم..

وقع بصرها على المجلة الملقاة بجانبها.. أمعنت النظر فيها للحظات، كيف لم تشاهد هذا الخبر من قبل؟!.. لقد كانت المجلة مُلقاة طول الوقت على السرير.. لم تعرها أي اهتمام.

انتفضت مسرعة وكأن النشاط قد دبّ في جسدها مرة أخرى..

ارتدت ملابسها في دقائق ثم فتحت باب الغرفة وهي تقطع خطوات سريعة إلى الخارج..

والمجلة الملقاة على السرير قد كشفت عن خبر يقول :

السيد إبراهيم إدا مالك موقع مسرح رمسيس يحجز عليه ويغلقه لتراكم الديون على صاحب فرقة رمسيس، الوجيه " يوسف وهبي ".

****

جاءها صوت يوسف وهبي على الهاتف بعد يومين.. أجابته وأنفاسها تتهدج..:

" إنت كنت فين يا يوسف؟! إزاي تختفي طول المدة دي؟! "

" ليه عملتي كده يا عيشة؟ ليه دفعتي الديون لصاحب المسرح؟ "

" يعني كنت عايزني أقف أتفرج على أكتر حاجة بتحبها وهيا بتروح منك؟ مقدرش.. أنا عارفة المسرح بيمثّلك ايه؟ "

" الفلوس إللي دفعتيها إعتبريها دين عليّا ولازم يتسدِّدلك.. "

" ولو ما كُنتش دفعت الفلوس ما كُنتش هتكلمني؟! "

" أعذريني.. كنت محتاج وقت إني أختلي بنفسي شوية.. "

" خلاص يا يوسف.. ما عدش فيه وقت نستناه.. "

" قصدك ايه ؟.. "

زفرت قبل أن تقول بطريقة حازمة: " هنتجوز.. لازم نتجوز ".

****

(١٧)

وقف يوسف وهبي يتأمل هيئته أمام المرآة، البدلة الاسموكينج التي يرتديها زادته وسامة فوق وسامته.. تناول حفنة من الفازلين ثم وضعها على شعره وأخذ يسرحه إلى الوراء في عناية..

اليوم يعقد قرانه على عائشة.. بعد عامين من اللقاءات السرية والأشواق المتبادلة..

ضربت برأي شقيقتها عرض الحائط من أجله.. ستتزوجه رغمًا عن أي شئ.

وعاد يفكر مرة أخرى.. ما الذي يدفعه إلى هذه المرأة ؟ .. ربما هدوئها الغير مفتعل.. ربما الحزن الذي يستوطن ملامحها.. ربما رجاحة عقلها وقلبها الكبير الذي يذكِّره بقلب المرحومة أمه..

لقد حذَّره شقيقهُ إسماعيل من هذه الزيجة..: " مش في مصلحتك يا يوسف إنك تتجوز ست أغنى منك، هيقولوا عليك طمعان فيها.. "، أما صديقه مختار عثمان فلوى شفتيه وهو يبارك له: " مبروك يا يوسف .. ربنا يستر ".. يعرف رد فعله هذا جيدًا.. يشابه رد فعله عندما أخبره عن رغبته في الزواج من لويز.. ولكنه لم يعتد أن يأخذ برأي أحد، طالما أنه يتبع قلبه فإنه يرى كل ما يفعله هو عين الصواب.

ألقى نظرة أخيرة على وجهه الوسيم وجسده مفتول العضلات ثم انصرف خارجًا وهو يحاول أن يسكت ذلك التساؤل اللعين الذي لم

يفارق عقله منذ الصباح..

" هل لو لم تكن عائشة بهذا الثراء.. كان سيسعى ليتزوجها ؟ ".

****

أخذت أنفاس النبيلة عائشة فهمي تتهدج وهي تردد وراء المأذون: " زوّجتك نفسي " .. " على كتاب الله وسنة رسوله " .. " وعلى الصداق المسمى بيننا.. " ..

يأتيها صوت يوسف وهبي وهو يقول: " وأنا قبلت زواجك.. " فتشعر بقلبها يرفرف.

رفع المأذون المنديل عن كفي العروسين.. وهو يقول: " بارك الله لكما.. وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير "..

ثم انطلقت الزغاريد في القصر المهيب..

تمسك بذراع يوسف وهي لا تصدق.. لقد تزوجته، انتصرت على الخوف الذي يباغتها والقلق الذي يستوطن صدرها..

لن تستيقظ يومًا وتجده قد رحل.. ستحتفظ به إلى الأبد.. وستقضي بقية أيامها على هذه الأرض بجانبه..

تستقبل التهاني من المعازيم وهي ذاهلة، وتحكم قبضتها التي تعانق ذراع يوسف..

كل الحضور من معارفه وأصدقائه، أشقائه وأعضاء فرقته.. تقترب منهم

وتستقبلهم بودّ، استوقفتها أمينة رزق.. شعرت تجاهها بألفة غريبة.. وجهها الرقيق المحبب قد دخل قلبها على الفور.. احتضنتها وهي تشكرها على الحضور رغم شعورها الخفي بما يخالجها تجاه يوسف.. هي اليوم لن تقلق ولن تخاف من أي شئ..

أمسك محمد عبد الوهاب العود بعد أن بارك للعروسين وأخذ يغني..:

" يا حبيبي.. إنت كل المراد

لست أرجو منك إلا الوداد

لا تدعني يا مليك الفؤاد

فعيوني كُحلت بالسهاد.. "

جذبته من ذراعه برفق.. " ايه واخداني على فين؟.. "

همست في أذنه.. " أنا قابلت معازيمك كلهم.. عايزاك تقابل الشخص الوحيد إللي جاي من طرفي.. "

كانت سعيدة منصور تجلس منزوية على إحدى المقاعد.. مشدوهة بالحفل الراقي..

عيناها الجميلتان تلمعان بذكاء شديد.. وجسدها البض يضج بالفتنة، تشعر لوهلة أنك أمام بورتريه جميل سيبقي نظرك معلقاً عليه لساعات..

اقتربت منها عائشة وهي تمسك بذراع يوسف..:

" أعرّفك يا يوسف على أقرب صاحبة ليا.. سعيدة بالنسبالي أختي

الصغيرة.. "

إلتقت عيناها بعيني يوسف وبقيا يرمقان بعضهما للحظات قبل أن تقطع عائشة الصمت السائد..:

" ايه مش هتسلموا على بعض ؟ .. "

سرت السخونة في جسد يوسف وهو يمسك بكفها ويلثمه.. :

" تشرفنا يا هانم.. "

أجابته سعيدة وأنفاسها تتهدَّج..:

" الشرف ليا.. أشكرك.. "

وصوت عبد الوهاب في الخلفية ما زال يتردد..:

" يا حبيبي.. إنت كل المراد

لست أرجو منك إلا الوداد .. ".

****

فندق بلازا أثيني باريس – فرنسا

لم تكن زيارة عائشة الأولى لباريس.. ولكنها المرة الأولى التي تزورها وهي تحب.. وهي سعيدة.. وهي برفقة يوسف.

كيف كانت الحياة قبل أن يأخذها يوسف بين ذراعيه ؟ ربما لا تذكر.. ولا تريد أن تذكر..

تستيقظ من نومها في منتصف الليل، تفتح عينيها بصعوبة فتجد يوسف مستلقي بجانبها.. فتغمض عينيها بإنتشاء.

إن الشعور الذي يخلفه وجوده في قلبها قوي .. ساحر.. يملأ قلبها بالنشوة فتشعر أنه سيفيض.. تشعر أنها لم تحزن يومًا.. بأنها قد غفرت للحياة كل قسوتها.. وبأنها انتصرت على القلق الذي يباغتها والخوف الذي يستوطن صدرها.

ما أجمل الحب حين يصالحك على نفسك.. حين يفرغ صدرك من كل ما يثقله.. فتشعر وكأنك ولدت من جديد.

يقضيان وقتهما ما بين الجلوس في شرفة جناحهما المزينة بالورود المطلة على برج إيفل، وبين السير في شارع الشانزلزيه وزيارة أرقى المطاعم والمسارح وبيوت الأزياء العالمية..

كانا يسيران يومًا في شارع دي ريفولي عندما توقفت فجأة وأخذت تتأمله..

" وقفتي ليه ؟.. "

" إفتكرت إن وقتنا هنا قرّب يخلص وإننا هنرجع مصر.. حاسة إني مش عايزة أرجع.. "

رمقها متعجبَا..: " مش عايزة ترجعي ليه ؟.. "

" عشان هتنشغل عني.. مش هشوفك كتير.. يا ريت نفضل هنا في باريس على طول "

" إنتي اتجوزتي فنان.. والفنان وقته مش ملكه.. إوعديني إنك ما

تنسيش الكلام ده "

زفرت: " إوعدني إنت يا يوسف إنك عمرك ما هتسيبني.. " صمتت برهة ثم أردفت: " إنك عمرك ما هتخونّي.. "

" ما تبقيش مجنونة.. ده كلام يتقال في شهر العسل ؟! "

" كل ما بقول إني نسيت الخوف.. يرجعلي تاني، أنا نفسي ما أخافش "

حدجها بحنق..: " الخوف بيقتل السعادة، طول ما إنتي خايفة عمرك ما هتبقي سعيدة.. بلاش الأفكار الوحشة دي وخلينا في دلوقتي "

تشبثت بذراعه وهي تحاول أن تصدقه.. وهي تحاول أن تخرس الخوف المقيت الذي يوسوس لها.. وهي تحاول أن تطمئن!.

****

(١٨)

هل توجد لحظة بعينها يستحيل فيها الحب إلى كراهية ؟ والحنان إلى قسوة؟ والثقة إلى شك يوسوس لك، فتشعر بأن العالم كله يتآمر عليك؟..

وجوه الذين أحببناهم يومًا وتمنينا أن نقضي بقية أعمارنا بجانبهم، كيف تستحيل فجأة إلى وجوه غريبة.. كريهة.. وجوه تجعلنا نمقت لحظة لقاءنا بهم ؟

القلوب التي تمتلئ على آخرها بالحب فتفيض.. كيف تتحول إلى قلوب سامة مليئة بالكراهية لا ترى أمامها هدفًا سوى أن تنتقم ؟

ستعيش الحياة وأنت تتسائل لِمَ لا تكون صريحة معك ؟.. لما لا تهيأك للصدمات التي تتلو الآمال الكبرى ؟.. والأحزان التي تعقب أفراح العمر؟ لِمَ لا تكشف لك عن جلدها الحقيقي وتصرخ في وجهك بأنها تخدعك ؟ وبأن سذاجتك لا حدود لها لأنك قد وقعت فريسة لخديعتها..

كانت الأمور تسير على ما يرام، انتقل يوسف وهبي للإقامة في قصر زوجته النبيلة عائشة فهمي.. وعائشة لا تصدق أنها تزوجته.. لقد أحكمت قبضتها على الخيط الذي يربط بينها وبين السعادة..

لا مزيد من القلق والخوف والشك، لن تستقيظ يومًا وتجده قد رحل.. ستعيش أيامها المتبقية على هذه الأرض برفقته.. وستفعل أي شئ من أجل أن لا يفارقها.

الحفلات المهيبة في القصر لا تنتهي، حفلات كل مريديها من أصدقاء يوسف من مشاهير الفن والأدب والصحافة والسياسة.. وعائشة ذاهلة بهذا العالم الجديد الذي ارتبطت به..

لا يضايقها كمّ الرسائل وباقات الأزهار والهدايا التي تصل يوسف وهبي.. فنان مشهور مثله محاطِ بآلاف المعجبات ولكن قلبه معها.. مع زوجته.. لن تسمح للقلق أن يسيطر عليها بشأن هذا الأمر.

خصّصت غرفة الموسيقى في الدور العلوي من القصر له.. لتكون مكتبه.. يجلس بالساعات يؤلف فيه أشهر رواياته التي سيعرضها على خشبة مسرح رمسيس.. لن يضطر إلى أن يغيب عنها ساعات طويلة.. لن تسمح للقلق أن يسيطر عليها بشأن هذا الأمر أيضًا.

ولكنها لا تدري لمَ يلحّ عليها شعور خفي في الفترة الأخيرة.. شعور أخفته بداخلها لسنوات.. شعور ينبئها قلبها أن موعده قد حان..

شعور الأمومة ! ، كم سيكون جميلًا لو حملت في أحشائها طفل من يوسف؟!.

****

كان هواء الخريف البارد يلفح وجهها الباكي وهي تجلس في سيارتها عائدة إلى قصرها، وصوت طبيب النساء ما زال يتردد على مسامعها ..

" انسداد في قناة فالوب.. للأسف يا هانم حدوث حمل شئ مش ممكن "

لم تدرِ كيف قطعت طريقها إلى العودة.. صوت السائق وهو ينبئها بوصولهما إلى القصر قد أفزعها..

" إتفضلي يا هانم.. إحنا وصلنا خلاص "

نزلت كالمشدوهة تتخبط، تسير بخطوات تائهة.. دلفت إلى البهو وقد اصطدمت بخادمها أبو القاسم..

" سيدك يوسف فين.. ؟ "

" لسه ما رجعش يا ستي.. ؟ "

" من ساعت ما خرج الصبح ؟.. "

" أيوة من الصبح.. "

شعرت بالنار تسري في جسدها وهي تلمح كمّ رسائل المعجبات الملقاة على الطاولة القريبة.. صاحت..:

" يا أبو القاسم، خد كل الجوابات دي إحرقها.. "

" خير يا ست هانم؟ ليه كده ؟ .. "

" من غير ليه.. إعمل زي ما قولت خدها كلها واحرقها.. "

ارتعدت أوصال الرجل الطيب وهو يجيبها ..: " أمرك.. "

وصعدت إلى حجرة نومها وكل خلجة في جسدها ترتعش.. ألقت بجسدها على السرير وحاولت عبثًا أن تغمض عينيها وتستعطف النوم، ولكن الصوت الذي يتردد على مسامعها يأبى أن يخرس..

" انسداد في قناة فالوب.. للأسف يا هانم حدوث حمل شئ مش ممكن"

اتسعت عيناها فجأة وهي تنتفض مفزوعة وداخلها يردد ..:

" أكيد يوسف هيسيبني.. أكيد لازم هيتخلى عني.. ".

****

عاد يوسف إلى القصر في ساعة متأخرة من تلك الليلة، فتح له الخادم الباب ليجد عائشة تقف في البهو والشرر يتطاير من عينيها.. صاحت به حانقة..:

" كنت فين لحد دلوقتي ؟ "

أجابها يوسف وهو لا يستوعب سبب ثورتها:

" كنت في المسرح طول النهار كان عندنا بروفة مهمة وبعدها طلعنا سهرنا أنا ومختار عثمان وجماعة صحابنا.. بتسألي ليه ؟ "

" ويا ترى صحابكم دول رجالة ولا ستات ؟ "

" ايه معناته السؤال ده ؟.. "

" بردو ما جاوبتنيش.. رجالة ولا ستات ؟ "

" أنا مش فاهم ايه سبب ثورتك دي كلها ؟.. إنتي بتشُكِّي فيا ؟ "

" هترجع تقوللي موّال أنا فنان والفنان وقته مش ملكه.. والفنان ده

مالوش زوجة ليها حق عليه..؟ زوجة مستنياه طول النهار وهو ولا على باله.. مؤكد كنت مع واحدة غيري شاغلاك عني "

" ده بقى جنان رسمي.. أنا مش قاعدلك " ثم فتح الباب وانصرف خارجًا والدم يغلي في عروقه..

أما عائشة التي وقفت تراقبه يختفي من أمام عينيها بفزع أخذت تنادي عليه وسيل من الدموع الساخنة قد تفجر من عينيها..:

" يوسف .. هتروح فين يا يوسف ؟ أرجوك ما تسيبنيش.. ".

****

دار بسيارته هائمًا في الشوارع، لا يدري أين يذهب في مثل هذا الوقت.. هل كان ما يخالجه من شعور تجاه عائشة كافيًا ليتزوجها ؟.. هل ارتكب خطأً فادحًا عندما قرر الزواج بها ؟.. هل لو لم تكن عائشة بمثل هذا الثراء كان سيسعى أن يتزوجها ؟.. الصوت اللعين في دماغه لا يريد أن يخرس..

شعر برأسه وهو يكاد أن ينفجر من التفكير ثم لمعت عيناه فجأة وهو يحدث نفسه..:

" بس ! مفيش غيره إللي هينفع أطُبّ عليه الساعة دي ".

****

فتح مختار عثما ن باب شقته وهو يفرك عينه ناعسًا.. أمعن النظر في الشخص الواقف أمامه للحظات قبل أن يقول..:

" مين؟ يوسف ؟! خير يا جدع؟ ما إحنا كنا لسه مع بعض من شوية.. خش إتفضل "

" معلش يا مختار استحملني، هبيّت الليلة دي عندك "

" تآنس وتشرف يا أبو حجاج.. بس ايه العبارة؟ لحقت تتخانق مع الست ولا ايه ؟ "

زفر يوسف وهو يلقي بنفسه على الأريكة التي تتوسط الصالة..:

" وحياة أبوك يا مختار أنا ماليش خلق أتكلم عن أي حاجة دلوقتي.. "

لحقه مختار وجلس إلى جانبه..

" على راحتك، بس تصدق إنت ابن حلال.. أنا كنت أول حاجة أعملها بكرة إني أجيلك ونفوت على عزيز عيد.. "

رمقه يوسف متعجبًا..

" عشان ايه ؟.. "

" بيقولوا طبّ ساكت في المسرح يا ولداه.. الدكاترة بيقولوا ذبحة صدرية.. هو راقد في شقته دلوقتي "

تجهم وجه يوسف وهو يجيبه..:

" لا إله إلا الله.. ربنا يسترها على الراجل.. إحنا أول حاجة نعملها بكرة إننا نروحله ".

****

شارع معروف – وسط البلد

وقف يوسف وهبي وصديقه مختار عثمان أمام باب الشقة متحيرين..

" الباب مفتوح يا يوسف.. ندخل على طول ولا نخبط ولا نعمل ايه ؟ "

أجابه يوسف بصوت حازم..: " احنا نخبط طبعًا ونشوف لو حد سمعنا.. "

جاءهم صوت عزيز عيد الخافت يجيب على طرقهم..:

" اتفضل يا إللي بتخبط.. "

كان مشهد عزيز عيد الجالس على مرتبة كالحة على الأرض مؤلمًا، تجري حوله في المساحة الفارغة ابنته عزيزة البالغة من العمر سنة.. تبكي ثم تعود فتهدأ وكأنّ قواها قد خارت، ثم تعاود البكاء مرة أخرى.. بكاء طفلة تريد أمها ولا تجدها..

دخل يوسف ومختار في خطوات مترددة.. ثم جلسا على شلتتان من القطن بجواره على الأرض..

حيّاهم عزيز بصوت خافت وقد بدا وكأنه قد شاخ فجأة..

" سلامتك يا أستاذنا.. إحنا اتأثرنا أوي لما عرفنا إللي صابك "

" الله يسلمك يا يوسف، يظهر إن صحتي ما بقيتش تتحمل أي حاجة.."

صاح مختار متعجبًا ..: " أمال فين فاطمة؟ وسايبة البت هتنفلق من العياط كده ليه ؟ "

أطرق عزيز برأسه قبل أن يجيب..: " فاطمة مشغولة في المسرح أوي اليومين دول .. وعزيزة الست جارتنا أم حسين الله يسترها ساعات بتطلع تاخدها ترضَّعها مع بنتها وتنيِّمها وتجيبها تاني.. "

شعر يوسف بأنه يتمزَّق وهو يرى عزيز عيد في هذه الحالة، هذا الرجل الذي كان يرتعد منه ويهابه كل مَن في مسرح رمسيس.. أصبح اليوم جليس الفراش لا يقوى على الحركة..

شعر يوسف بالحرج وهمّ بالإستئذان برفقة مختار.. عندما دلفت فاطمة رشدي إلى الشقة..

" الله! الأستاذ يوسف هنا.. أهلًا وسهلًا .. أهلًا يا مختار "

" أهلاً بيكي يا فاطمة.. إبقي خلي بالك على الأستاذ.. "

حدجته مستنكرة..: " طبعًا، مش محتاج توصّيني عليه.. "

" بالمناسبة مبروك على النجاح الكبير، اسم فرقة فاطمة رشدي دلوقتي بقى مسمّع أوي.. "

أطلقت ضحكة ساخرة قبل أن تجيبه بنبرة مغرورة.. :

" الله يبارك فيك يا أستاذ، أخيرا الواحد داق طعم النجاح.. إمبارح عرضنا غادة الكاميليا والجمهور كان هيتجنن.. ده حتى بيقولوا عليّا أحسن واحدة مثِّلت دور مارجريت جوتيه.. "

" مفهوم مفهوم.. نستأذن إحنا بقى عشان ورانا حاجات مهمة "

ودعتهم ووجهها يتهلل.. لقد أثبتت للجميع أنها نجمة.. حتى يوسف

وهبي الذي لم يمنحها التقدير الذي أرادته قد شهد لها بالنجاح.. تشعر أنها أخيراَ انتصرت..

وقفت وورائها زوجها الذي خارت قواه واقعده المرض وصوت ابنتها التي لا تتوقف عن البكاء يتردد في الخلفية.

بذل مختار عثمان مجهوداً كبيرا وهو يحاول أن يخفض صوته في الطريق إلى الخارج..

" الراجل حالته تصعب على الكافر يا عيني.. الجوازة دي جابته أرض أرض.. "

زفر يوسف: " قال بيحبها يا سيدي.. "

صاح فيه مختار حانقًا..:

" يا أخي ملعون أبو الحب إللي يعمل في الراجل كل ده.. ".

****

(١٩)

عاد يوسف وهبي إلى قصر زوجته بعد يومين ليجدها في إنتظاره تكاد أن تفقد عقلها بسبب غيابه عنها.. انتفضت واقفة عندما رآته، ثم ركضت إليه وهي تلقي بنفسها في أحضانه..

" كنت فين يا يوسف ؟.. قلقتني عليك.. أنا غلطت وشكّيت فيك.. أرجوك تسامحني.. أرجوك ما تبعدش تاني عني.. "

ربّت يوسف عليها برفق وقد أشفق على حالها..

" خلاص يا عيشة.. ما حصلش حاجة، إوعديني إنك ما تفكريش في الأفكار الوحشة دي تاني.. "

أجابته وهي تحاول أن تتجاهل الخوف المقيت الذي يوسوس لها والقلق الذي يستوطن صدرها..:

" أوعدك.. ".

وحاولت جاهدة أن لا تقلق وأن لا تخاف وأن لا تشك في سلوكه.. ولكنها تشعر بأنها يبتعد عنها يوماً بعد يوم.. يغيب عنها ويتركها وحدها لساعات طويلة.. وأحيانًا لأيام.. تشعر أن الخيط الذي يربط بينها وبين السعادة سيفلت من يدها.

ما بين المسرح، ولعب البوكر، وسباق الخيل وسهرات الأصدقاء.. تحاول عائشة أن تسرق لحظات نادرة تقضيها مع يوسف، فتستأجر إحدى المراكب النيلية وتفرشها بالورود ليقضيا فيها سهرة ليلية.. أو تأخذه في

رحلة إلى الفيوم أو إلى إحدى القرى الهادئة في الريف.. أي شئ لتستعيد به ذكريات حبهما قبل الزواج، لكي لا ينسى.. ولا يهملها .. لكي لا يتركها ويختفي يومًا ما.

شعرت في أحد الأيام أنه شارد الذهن.. وجهه مهموم وحديثه كلمات قليلة يبذل جهدًا في نطقها .. شعرت بالقلق يتسرّب إليها مرة أخرى وسارعت لتسأله..:

" حالك مش عاجبني اليومين دول يا يوسف.. يا ترى ايه إللي شاغلك عني ؟ "

زفر ثم قال بأسى.. :

" الحقيقة في مسألة مهمة كانت شاغلاني أوي الفترة إللي فاتت.. ما كنتش حابب إني ادوشك بمشاكلي.. "

" أنا أكتر حاجة تسعدني إني أنشغل بيك وبمشاكلك.. أرجوك ما تترددش إنك تحكيلي.. "

ابتسم لها في حب ثم أخذ يخبرها عن ما يشغله.. حلم كبير.. يدعى " مدينة رمسيس للفنون "، مدينة كبيرة تجمع قاعات للسينما والمسرح وإستوديوهات للتصوير ومدينة ملاهي كبرى، مشروع سيَغيِّر شكل الفن في مصر.. هو الأول من نوعه في العالم.

وعائشة مشدوهة وهي تشاهده يتحدَّث عن حلمه وعيناه تلمع بحماس.. أي شئ يسعده سيجعل قلبها يرفرف..

ثم عاد وجهه المشتعل بالحماس منطفئًا من جديد.. أردف..:

" أنا لقيت الأرض إللي هعمل عليها المشروع قريبة من هنا في منطقة العجوزة.. لكن للأسف قدامي مشكلة واحدة وهي التمويل.. بنك مصر رفض يمول المشروع.. حتى كام حد من أصحاب الثروة من معارفي رفضوا إنهم يموّلوني.. "

سارعت عائشة بالكلام ..:

" إزاي ما تقولّيش ؟.. أنا أحقّ واحدة إني أموّل المشروع ده .. أنا مراتك وأولى واحدة إني أساعدك "

" لا يا عيشة أنا ما كنتش حابب إن علاقتنا تدخل في الشغل.. الناس هيقولوا عني ايه ؟ إني إتجوزتك عشان طمعان فيكي..!! "

صاحت..: " سيبك من الناس وكلامهم.. أنا أي حاجة هتسعدك وتقرَب بينّا مش هتردد إني أعملها.. ايه لازمة كل الفلوس إللي بأملكها دي لو ما قدرتش تسعدني ؟.. أنا لازم أموِّل المشروع ده "

طأطأ رأسه وهو يفكر، ثم قال بطريقة حازمة..:

" يبقى لازم كل شئ ياخد صورة قانونية.. نمضي عقود وأكتبلك كمبيالات بالفلوس إللي هتدفعيها.. "

" مفيش بينّا الكلام ده.. أنا مش عايزة منك حاجة.. "

" أرجوكي يا عيشة ده شرطي.. إللي هتدفعيه هيكون دين عليّا ولازم يتسدّدلك.. "

زفرت ثم أردفت..: " إللي تشوفه.. أنا هكلم محامي العيلة الأستاذ عبد الرحمن البيلي.. عشان يباشر الإجراءات ".

****

أمعن يوسف وهبي بالأوراق التي أمامه عدة دقائق قبل أن يقول.. :

" ايه ده يا أستاذ عبد الرحمن ؟ العقود دي بتنصّ إن أنا ليا حق الإنتفاع بكل شئ في المشروع بس.. وكله هيكون ملك زوجتي.. يعني أنا صاحب المشروع مش هملك أي شئ ؟ "

حدَّجه عبد الرحمن البيلي من وراء نظاراته الطبية، ثم قال..:

" الحقيقة دي توصيات عزيزة هانم فهمي.. ما تآخذنيش لازم نضمن حق عيشة هانم في المشروع.. "

" أنا أكيد هضمن لها حقها.. أنا مضيت لها على كمبيالات بكل إللي دفعته.. لكن المشروع مشروعي والفكرة فكرتي.. العقود لازم تنص على حقي في ملكية نص المشروع وإدارته والحصول على نسبة من الأرباح كمان.. "

" ده كتير أوي.. إسمحلي إنت يادوبك صاحب الفكرة مش هتدفع ولا مليم ! "

سارعت النبيلة عائشة فهمي لتنقذ الموقف وتمنع حدوث أي تصادم..:

" خلاص يا أستاذ عبد الرحمن.. أرجوك تنفذ إللي يوسف بيطلبه.. يوسف جوزي وأنا واثقة فيه.. ده مشروعه وهو حر.. "

" لكن يا هانم..... "

سددت له نظرة ثاقبة قل أن تقول..: " أرجوك يا أستاذ عبد الرحمن.. تنفذ إللي بطلبه منك.. إعمل إللي يوسف قال عليه "

" خلاص يا هانم إنتي حرة .. إللي تشوفيه ".

****

(٢٠)

شركة رمسيس للإنتاج السينمائي - يناير ١٩٣١

أخذ يوسف وهبي يغدو ويروح حائراَ في غرفة مكتبه بشركة رمسيس التي أسّسها ضمن مشروعه بالعجوزة، المشروع الذي أنفق عليه الآلآف من أموال زوجته، ولكنه لم يلقَ النجاح الذي كان يتوقعه!

يجد الكثير من المتفرجين صعوبة كبيرة في الوصول إلى مكان مدينته الجديدة.. العجوزة منطقة شبه مهجورة وخالية من السكان.. حاول عبثًا أن يهتم بمشكلة المواصلات وأن يُسهِّل الأمور عليهم ولكنه فشل.

زفر وهو يلقي بنفسه على كرسي مكتبه.. يشعر أن رأسه ثقيل وعينيه زائغة.. ومرارة الفشل تلهب حلقه !

نعم يجب أن يعترف أنه فشل.. فشل في مشروعه الذي كان يحلم به وفشل في زواجه الذي كان يرسم له صورة أخرى.

وعائشة.. آه من عائشة لقد حوّلت حياته إلى جحيم بشكَّها وغيرتها وخوفها.. اللحظات الحلوة في عمر زواجهم تُعدّ على الأصابع.. أصبح لا يذكر إلا الصراخ والشجار وتركه المتواصل لها.

إن الشك عندما يدخل إلى أي علاقة عاطفية يقتل الحب.. لا يمكن أن تتّسع أي علاقة للإثنين معًا.

الآن وبعد مرور عامين يدرك أنه ارتكب خطئًا فادحًا عندما تزوجها، لم يحبها يومًا.. وإنما كان يرتاح لها.. لهدوئها الغير مفتعل.. وللحزن الذي يستوطن ملامحها. . ولم تكن هذه الصفات كافية يومًا ليتزوجها.

فقد تحوّل الهدوء إلى ثورة عارمة لا تهدأ والحزن إلى شك وغيرة وقلق.. أصبحت كل لحظة يقضيها معها تضيق صدره وتثقل نفسه..

لكنه لا يستطيع أن يتركها بعد ما فعلته.. يتذكر حجم الأموال التي يدين لها بها فيشعر أنه سيختنق.

أمسك رأسه بكفيه وهو يشعر أنه على وشك الإنفجار .. كل هذا الذي يفكر به لا يُعدّ مشكلة كبرى.. المشكلة فعلًا أنه يحب ! .. يحب امرأة أخرى.

****

طرق خفيف على الباب قد أفاقه من شروده..

" إتفضل .. "

تهللت أسارير يوسف وهو يمعن في الوجه الذي يقف أمامه، انتفض واقفًا من على كرسيه وركض يحتضن صديق عمره المخرج " محمد كريم "..

" أنا مش مصدق عينيا.. إنت رجعت إمتى يا محمد ؟.. واحشني بصحيح "

" وانت كمان يا صديقي.. وحشتني أوي.. طمنّي عنك "

جلس الصديقان قبالة بعضهما يستعيدان ذكريات ماضٍ بعيد.. عندما لمس محمد حزنًا خفيَا في وجه يوسف..

" خير يا أبو حجاج ؟.. شكلك مش عاجبني "

تنهد يوسف بآسى قبل أن يجيبه..

" والله شوية مشاكل كده يا محمد، من أهمها أهو المشروع إللي حلمت بيه وياما سهرت عليه، مش جايب همه "

" لا من الناحية دي ما تقلقش خالص .. أنا عارف نتصرف إزاي "

" تقصد ايه ؟ "

" إنت عارف إني لسه راجع من ألمانيا بعد ما درست الإخراج سنين طويلة واشتغلت شوية كمان.. شركة الإنتاج بتاعتك دي لازم تشتغل.. إنت هتنتج أول فيلم مصري ناطق وأنا هخرجه "

رفع يوسف حاجباه في دهشة ..:

" والله إنت عارف إني مابحبش السينما طول عمري عشان صامتة.. من غير روح.. لكن طالما هيبقى فيلم ناطق يبقى نجرب طبعًا مفيش مانع"

" عظيم.. وأنا هسيبلك يا سيدي موضوع الرواية تختارها براحتك "

لمعت عينا يوسف فجأة وكأنه تذكر شئ ما..

" يبقى هي مفيش غيرها.. رواية أولاد الذوات ".

****

بطلة شريط أولاد الذوات

وصلت إلى مصر في هذا الأسبوع الآنسة " كوليت دارفي " الممثلة الفرنسية المشهورة لكي تشترك مع الأستاذ يوسف وهبي في إتمام إخراج الشريط السينمائي لرواية " أولاد الذوات ".

وقد أخذت لها الصورة على اليسار برفقة الأستاذ يوسف وهبي والأستاذ محمد كريم في إحدى السهرات المقامة على شرف إستقبالها.

شعرت عائشة أن الدم يغلي في عروقها بمجرد ما فرغت من قراءة الخبر المنشور في إحدى المجلات الفنية.. أن يوسف سيمثل مع تلك الفرنسية الجميلة.. مؤكد أنه سيقع في حبها.. إنها أجمل منها وأصغر منها.. مؤكد أنها ستخطف يوسف منها.. سيتركها ويفلت يديها.. يجب أن تفعل شيئًا بهذا الشأن.

ذهبت إلى غرفة النوم وكل ما فيها يشتعل.. وجدته نائمًا وألقت بالمجلة عليه فقام مفزوعًا من نومه..

" حصل ايه ؟.. "

" تقدر تفسر الخبر إللي منشور في المجلة ده بإيه؟.. "

زفر وهو يحاول أن يتمالك نفسه..: " لو تقصدي الخبر عن الممثلة الجديدة إللي هتمثل في الفيلم.. فدي كانت سهرة عملناها عشان نرحب بيها.. "

صاحت ..: " ترحبوا بيها ؟ ولا إنت بالذات إللي ترحّب بيها ؟ .. إنت

أكيد عجبتك.. حبيتها.. سهرت معاها للصبح.. عشان كده راجع وش الفجر إمبارح.. أكيد لازم خونتني.. "

" هو إنتي ما بتزهقيش من النغمة السخيفة دي ؟.. "

" ما تقول بصراحة إنك كرهتني.. ما بقيتش تحبني.. عايز تسيبني ؟! "

استجمع يوسف شجاعته وهو يحاول أن ينطق بالحديث الذي يؤجِّله من فترة.. يجب أن يخبرها.. يجب أن يُنهي هذه المأساة..

" أنا فعلًا يا عيشة قررت أسيبك.. "

ثم قام من على فراشه وهمّ أن يغير ملابسه قبل أن تصيح فيه عائشة مفزوعة..:

" تقصد بإيه إنك قررت تسيبني ؟.. "

أجابها بعدما انتهى من ارتداء ملابسه على عجل..:

" أقصد إني ماشي من هنا ومش هرجع تاني زي كل مرة .. عن إذنك "

ثم انصرف على عجل وكأنه طائر قد فُتح له باب القفص،

وعائشة سقطت على الأرض مذهولة لا تصدق.. لقد تركها يوسف.. لقد أفلت يديها.. لقد أفلتت الخيط الذي يربط بينها وبين السعادة !.

****

كيف تتصرف الآن ؟ .. ليست المرة الأولى التي يترك فيها يوسف القصر، ولكن يبدو أنها ستكون الأخيرة.. قلبها ينبئها أنه لن يعود.

لم تكن تقصد ما فعلته.. ولكن الأمور قد خرجت عن سيطرتها بالكامل.. إن الشك يوسوس لها في كل لحظة.. يجب أن تستعيده.. تستعيد

الخيط الذي يربطها بالسعادة وبالحب .. وبالحياة !

تهدجت أنفاسها وهي تفكر.. تسيل الدموع حارة على خديها تمسحها ثم تعود فتحاول أن تتماسك..

ركضت وهيا تتخبط إلى الهاتف رفعت السماعة وطلبت إحدى نمر الهاتف..

" آلو.. أكلم سعيدة هانم من فضلك.. قولّها عيشة فهمي "

لحظات وجاءها صوت صديقتها..

" إلحقيني يا سعيدة.. إلحقيني.. "

" خير يا عيشة؟ ايه إللي جرى ؟ "

" إتخانقت تاني مع يوسف وخرج وسابني .. شكله مش راجع .. من غير ما أقصد شكّيت فيه.. أنا مش عارفة أعمل ايه دلوقتي "

صاحت فيها صديقتها مستنكرة..:

" تاني يا عيشة ؟ هو إنتي مش هتبطلي الشك و الغيرة إللي سيطروا عليكي دول.. دي المرة المليون إللي تتخانقوا فيها ! "

" أنا عارفة، بس غصب عني.. مش بإيدي.. أرجوكي تساعديني وتروحي تتكلمي معاه.. لازم يرجعلي.. لازم "

زفرت، ثم أردفت..:

" هحاول يا عيشة .. هحاول ".

****

(٢١)

حي المنيرة - القاهرة

وقفت أمينة رزق ساكنة تتأمل الشقة التي استأجرتها ليوسف وهبي، شعرت براحة كبيرة وهي تتجوّل فيها.. لقد فرشت كل جزء فيها على ذوقها كما طلب منها يوسف..

خالجها شعور أنها سيدة هذا المنزل.. احمرّت وجنتاها من الخجل وهي تتخيل أنها زوجة ليوسف.. مجرد ربة منزل تستوطن بيتها الصغير.. تهتم بكل شؤونه وتعد الطعام إلى أن تستقبله في وقت عودته.

تشعر أنها اقتربت من تحقيق هذا الحلم.. يبدو جلياَ هذه المرة أن يوسف لن يعود إلى زوجته، لقد اشتعلت الخلافات بينهما إلى حد كبير.. لا تعتقد أن الأمور سترجع بينهما مثلما كانت.

إن يوسف هذه الفترة مهموم.. مكتئب.. يمر بأسوأ حالاته.. ولكنه مع ذلك لم يطلب من أي شخص المساعدة سواها.. أخبرها أنه يثق بها ويئتمنها على سره..

ربما بدأ أن يشعر بها.. ربما اهتدى قلبه أخيراً إلى الجهة الصائبة.. جهة قلبها وأحاسيسها التي جاهدت أن تخفيها منذ أن وطأت قدماها مسرح رمسيس.. ومنذ أن وقعت عيناها عليه..

تنهدت بإرتياح وهي تتخيل شكل المستقبل الذي رسمته معه.. شعرت أن قلبها يرفرف من فرط السعادة..

جاءتها أصوات طرقات خفيفة على الباب فشعرت أن أنفاسها تتلاحق..

لا بد أنه يوسف .. لقد أخبرها أنه سيمرّ عليها آخر النهار..

فتحت الباب فإذا بوجهه الوسيم الذي يربكها.. أمعن فيها مبتسمًا وهو يحيها..:

" أهلاً بست البنات.. الشقة جميلة أوي.. أنا مش عارف أشكرك إزاي يا أمينة "

احمرّت وجنتاها قبل أن تجيبه:..

" على ايه يا أستاذ..؟ أنا ممكن أخدمك بعينيا.. "

" صحيح يا أمينة ؟.. "

" طبعًا يا أستاذ.. "

" طيب تعالي معايا.. "

أجلسها قبالته وهو يحدق فيها صامتًا.. شعر بإرتباكها الذي زاد فقرر أن يتحدث..:

" اسمعي يا أمينة.. أنا دلوقتي حاسس إني يمكن ما بثقش في حد على قد ما بثق فيكي.. على الرغم من سنك الصغير إلا إن عقلك وقلبك يساعوا الدنيا بحالهم "

شعرت أن دقات قلبها تتلاحق وهي تستمع إليه.. لقد شعر بها.. أخيراَ سيتحقق حلمها..

أردف ..: " عشان كده أنا عايز أتشجع وأطلب منك طلب.. تقدري

تنفذيهولي ؟ "

" أ ي حاجة تطلبها مني.. هنفذها فوراً.. "

****

الزمالك – القاهرة

أخذت أمينة رزق نفساً عميقًا وهي تقف أمام بوابات إحدى الفلل مترددة من أن تطرق الباب، تخاف أنها لم تحسن التنكر وأن أي شخص يمكنه أن يتعرف عليها..

عدَّلت من وضع الباروكة على شعرها ثم زفرت وقررت أن تطرق الباب..

فتح لها بواب الفيلا وهو يتأملها.. أمعن فيها لحظات قبل أن يسألها..

" إنتي مين ؟ وعايزة ايه ؟.. "

استجمعت شجاعتها ثم قررت أن تتحدث..:

" أنا الكامريرة إللي كانت الست هانم طالباها.. وحياتك تبلغها زمانها مستنية وصولي دلوقتي "

" طيب إستني هنا.. هروح أسألها وآجي "

دقائق قليلة قضتها منتظرة قبل أن يعود إليها البواب وقلبها يدق حتى شعرت أن صوت دقاته سيثقب طبلة أذنيها..

" اتفضلي الست هانم منتظراكي في أوضة نومها.. "

دلفت إلى الفيلا بخطوات مرتبكة ثم صعدت الدرج وصولًا إلى إحدى غرف النوم.. أشارت لها الخادمة بأن تدخل ثم أغلقت الباب ورائها..

ركضت إليها سعيدة منصور تستقبلها.. ابتسمت لها أمينة بطيبة ثم أخرجت من جيب فستانها ظرف مغلق..

" الأستاذ باعتلك معايا الجواب ده.. وبيقولك إنه منتظرك بكرة "

احتضنتها سعيدة وقلبها يرفرف..: " أشكرك يا أمينة على إللي بتعمليه.. انا عمري ما هنسالك جميلك ده "

فتحت الظرف المغلق وأخرجت الرسالة متعجلة.. تلألأت عيناها بالدموع وهي تقرأ فحواها..

حبيبتي سعيدة..

لا مزيد من الإنتظار والعذاب.. لقد قررت أن أطلّق عائشة.. لم أعد قادرًا على أن أخدعها وأخدع نفسي..

أنتي المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي.. أنتي الصواب الوحيد وسط كل هذه الأخطاء..

يجب أن تتشجّعي وتطلبي الطلاق من زوجك.. لكي لا يفرق شئ بيننا إلى الأبد.

سأنتظرك غدًا في الشقة التي استأجرتها بالمنيرة.. أمينة ستخبرك بالعنوان.

إلى اللقاء يا أحب الناس

طوت الرسالة وهي تشعر أن بركانًا من المشاعر المتناقضة قد تفجر في صدرها.. حب وخوف وندم وحيرة.. لا يوجد على الأرض من هو أسعد منها بهذا الحب.. إنها تحب يوسف وتعلم أنه يحبها.. ولكنها لا تريد أن تكسر قلب أقرب صديقاتها.. ولا تريد أن تخون زوجها وتخسر أطفالها وبيتها.. ستقتلها الحيرة وهي تفكر.. يجب أن تقرر بسرعة، إما يوسف وهبي، وإما كل شئ تملكه !

ودَّعت أمينة ثم تمدَّدت على سريرها وهي تحضن الرسالة وتفكر.. يجب أن تكون مستعدة لخسارة كل شئ من أجل الرجل الوحيد الذي أحبته.

أما أمينة فخرجت من الفيلا على عجل وسارت في الشوارع الخالية.. صوت حفيف الشجر يتردد على مسامعها ورياح الشتاء الباردة تلفح جسدها الضئيل فتوشك أن تطيّره من على الأرض..

ابتسمت في أسى وهي تتذكر شعورها منذ ساعات قليلة، لقد هيئ لها خيالها الساذج أن يوسف قد أحبها.. قد التفت إليها وشعر بما يخالجها..

و لكنها ليست الحقيقة ولم تكن يوماً الحقيقة .. إن كل نساء العالم سيلفتن نظر يوسف وهبي وسيقع في حبهن إلا هي !.

****

(٢٢)

كانت عائشة تجلس في غرفة الصالون الكبير بقصرها وكل ما فيها يشتعل.. تقف تارة وتغدو في الغرفة ذهاباً وإياباً تارة أخرى.. تنظر من النافذة المطلة على حديقة القصر ثم تتأفَّف متضجرة..

إن حياتها تنهار.. لم تسمع من صديقتها سعيدة منصور منذ هاتفتها بالأمس..

هل باءت كل محاولاتها لإسترضاء يوسف بالفشل ؟ .. لا بد أنه يرفض الرجوع إليها.. تعرف أنها بالغت في مخاوفها وشكوكها.. ولكن الأمر ليس بيدها.. لقد أحبت يوسف حد الجنون فخشيت أن تضيعه من يديها.. إنها لم تسعد يومًا في حياتها إلا عندما قابلته.. لم تحب أي رجل يومًا كما أحبته.. إذا تركها يوسف فإنها ستضيع.. لا معنى لحياتها بدون وجوده !

دخل عليها خادمها أبو القاسم وهو يستأذن..

" في واحد بره واقف طالب يقابلك يا ستي.. بيقول إن إنتي منتظراه "

انتفضت واقفة من مكانها قبل أن تقول.. :

" أيوة.. أيوة.. خليه يدخل بسرعة "

دلف إلى الصالون رجل أربعيني ضخم الجثة.. يرتدي معطفًا أصفراَ كالحًا وطربوش على رأسه..

صاحت..: " ها.. عملت ايه ؟ "

" أنا فضلت واقف يا ست هانم قدام البِيت إللي فيه الشقة.. محدش خرج ودخل من عنده غير واحدة ست سفِيفة كده وكان بيبقى معاها أكل.. وهو من ساعت ما رجع إمبارح آخر النهار ما خرجش "

" إنت متأكد ؟ "

" أيوة متأكد.. "

" طيب متشكرة أوي.. خد الفلوس دي ولما هعوزك تاني هبعتلك "

تهلل وجه الرجل وهو يتسلم منها المال قبل أن ينصرف..

" الله يطوّل في عمرك يا ست هانم.. ربنا يخليكي لينا "

في لحظات كانت في غرفة نومها تبدل ملابسها..

يجب أن تذهب إلى يوسف..

يجب أن تستعيده بنفسها.

****

صعدت الدرج المتهالك بصعوبة بعد أن عرفت رقم الشقة من البواب.. تلاحقت دقات قلبها وهي تفكر كيف سيستقبلها يوسف.. يجب أن تفعل أي شئ هذه المرة من أجل أن تستعيده.. يجب أن تسيطر على شكّها وعلى مخاوفها التي لا تهدأ.. ستفعل كل ما يطلبه منها.. كل ما يرضيه.. المهم ألا يتركها.

وقفت أمام باب الشقة فوجدته شبه مفتوح.. تردَّدت قبل أن تدفعه وتدخل.. ولكن صوت ما استوقفها. . صوت امرأة تعرفها جيدًا يأتيها من الداخل..

تهدجت أنفاسها وهي تفتح الباب شيئًا فشيئًا.. واتَّسعت عيناها من الذهول وهي تمعن النظر في المشهد القائم أمامها..

إن سعيدة في أحضان يوسف.. ويوسف سعيد.. هائم.. يمطرها بكلمات الحب..

لا تدرِ لمَ تذكرت حينها أخيها علي.. لما عاود مسامعها صوت طرقات سعيد العناني على الباب.. ولمَ تذكرت وجهه الكالح وهو يقول: " البقية في حياتكم ".. لمَ تذكرت زواجها البائس وعدم قدرتها على الإنجاب..

شعرت أن قدماها لا تسعفاها على الوقوف.. العرق الساخن قد أندى جبينها والتنميل الذي هاجم رأسها لا تستطيع أن توقفه..

وقف يوسف وسعيدة أمامها ورؤوسهما مطرقة في الأرض.. لم يتصورا أن ينكشف سرّهما بهذه الطريقة.. لم يريدا يومًا أن يكسرا قلب عائشة..

بادرها يوسف بالحديث مرتبكًا..: " ارجوكي يا عيشة تتمالكي أعصابك وتسمعيني.. الموضوع مش زي ما إنتي فاهمة.. "

ولأول مرة بدا حديثه ثقيلًا.. كريهًا.. لا تستسيغه مسامعها.. ولم ترد أن تسمعه..

حملت نفسها وغادرت الشقة مسرعة.. نزلت إلى سيارتها ثم أمرت السائق أن ينطلق.

****

هل يوجد أسوأ من شعور المرأة عندما تكتشف أن من أحبته قد خانها؟ قد أحب امرأة أخرى.. لمس امرأة أخرى.. فكر في امرأة أخرى..!!

يمكن للمرأة أن تغفر لك كل شئ.. أن تهملها.. أن تزهد في حبها.. أن تؤذيها.. شئ واحد لا يمكنها أن تغفره لك وهو الخيانة.

إ ن الشعور الذي يعتري عائشة الآن لا يمكن وصفه.. شعرت كمَن تلقَّى صفعة قوية أفاقته من شروده الطويل.. كمَن تلقَّى طعنة غدر لم يكن يتوقع صاحبها..

عادت إلى قصرها ذاهلة.. لا تصدق ما رأته لتوّها..

صعدت إلى حجرة نومها وهرعت إلى المرآة تحدق فيها.. إنها ليست بجمال سعيدة.. وليست بعمرها.. إنها تكبرها بعشرات السنوات.. شعرت أنها كرهت نفسها وكرهت سذاجتها وكرهت كل الحب الذي منحته ليوسف..

تشعر فجأة أن الحنان الذي طالما ملأ قلبها قد تحوّل إلى شئ آخر.. شئ مرير طفحت مرارته على حلقها.. شئ أبشع من الكره وأفظع من الغل.. شئ أشبه بالإنتقام.

هرعت إلى خزانة الملابس وهي تلهث، وجمعت كل ملابس يوسف ثم هرعت إلى مكتبه وجمعت كل كتبه وأوراقه.. وألقتهم في بهو قصرها الكبير وهي تصرخ..:

" يا أبو القاسم.. إحرق كل الحاجات دي فوراً.. "

دلف يوسف إلى البهو وهي تصرخ..:

" ايه إللي إنتي عملتيه ده ؟.. "

نزلت إلى مكان وقوفه وقد بدت وكأنها استحالت إلى شخص آخر..

" أنا لو عملت حاجة يبقى عملت أكبر غلط في حياتي.. إني إتجوزت واحد زيك "

صاح يوسف..:

" تمالكي أعصابك وما تخلطيش الأمور ببعضها.. "

" أنا أغبى ست في العالم إني صدَّقتك.. وصرفت عليك فلوسي.. وعملت منك حاجة كبيرة "

" أنا يوسف وهبي.. محدش يقدر يعملني.. أنا إللي بنيت نفسي بمجهودي "

" إنت خاين.. كداب.. مشخصاتي وبس.. "

شعر يوسف أن الدم قد تفجر في عروقه وأنه لا يوجد إلا مخرج وحيد من هذه المأساة..

زفر ثم أردف بهدوء..: " كل شئ انتهى بينا يا عيشة .. إنتي طالق ".

****

هرعت النبيلة عزيزة فهمي إلى حجرة نوم أختها.. فوجدتها نائمة على سريرها يكسوها الإعياء، اقتربت منها وهي تحاول أن تيقظها برفق..

" عيشة.. قومي يا عيشة.. مالك ايه إللي صابك؟ أبو القاسم طلبني في التليفون وحكالي إللي حصل "

أفاقت عائشة وهي تنتفض ثم ألقت بنفسها في أحضان شقيتها وهي تبكي..

" يوسف خاني يا عزيزة.. خانِّي مع سعيدة.. حبّ واحدة غيري وبعدين طلَّقني "

" طيب بس ما تبكيش.. امسحي دموعك دي، محدش في الدنيا كلها يستاهلها.. إنتي لازم تحرقي قلبه زي ما حرق قلبك .. لازم "

لمعت عي ناها بقوة وكأنها قد اكتشفت شيئًا جديدًا لم تلحظه من قبل.. إنها تعرف كيف تحرق قلب يوسف.. تعرف كيف ستحطمه.. تعرف ما الذي يحبه أكثر من أي شئ في هذه الدنيا.

****

(٢٣)

كان الأستاذ عبد الرحمن البيلي يتفحص عدة أوراق في يده بتمعَّن شديد عندما رن جرس هاتفه..

تمهَّل لحظات قبل أن يرفع سماعة الهاتف ثم قال بصوت آجشّ..:

" ألو.. مين معايا ؟ "

" أنا عيشة هانم فهمي يا أستاذ.. طمنّي ايه الأخبار ؟ "

" أهلًا أهلًا يا هانم.. إتطمني خالص.. الدعوى تم رفعها خلاص، ما تنسيش إ ن مبلغ مؤخر الصداق مش هيّن، وأكيد هيتمّ إخطاره بالحجز على مسرح رمسيس ومدينة الفنون كمان.. ده غير لما نقدم الكيمبيالات إللي وقَّعلك عليها في المحكمة.. دي لازم فيها حبس "

تنهدت عائشة بإرتياح قبل أن تجيبه.. :

" أنا متشكرة أوي.. يا ريت أي جديد تبلغني على طول.. مع السلامة "

ثم وضعت سماعة الهاتف وهي منتشية، ستحقق إنتقامها من يوسف وهبي.. ستحطمه كما حطمها.. تعرف ماذا يمثل له المسرح ومشروع مدينة الفنون.. إن يوسف وهبي من دون فنه لا يساوي شئ..

لكنها لا تشعر بالسعادة كما توقَّعت أن تكون.. ستنتقم منه وتشفي غليلها.. فلماذا لا تشعر بالسعادة ؟

إنها تشعر بشئ مرير يلهب حلقها.. تشعر أن قلبها الطيب قد تلوّث..

لم تكن يومًا بهذا الشر.. لم يكن قلبها الذي يسع العالم يومًا ضيقًا إلى هذا الحد..

نظرت إلى المرآة وهي تحاول أن تتعرف إلى انعكاسها القائم أمامها.. مَن هذه المرأة التي أصبحت عليها ؟

كيف وصلت إلى هذا الحال ؟ كيف قادها الحب الذي ظنت أنه بوابتها للشعور بالسعادة إلى كره ملأ قلبها فتملَّك كل جوارحها ؟

لم تكن يومًا كذلك، ولا تريد أن تكون..

****

حي المنيرة – القاهرة

ألقى يوسف بمجموعة المجلات التي يمسك بها على الأرض ثم صاح في صديقه مختار عثمان..:

" شايف ؟!.. كلهم بيشمتوا فيا.. كل العناوين بتقول كده.. سقوط رمسيس .. وانتهاء أسطورة يوسف وهبي .. ويوسف وهبي يعلن إفلاسه....، أنا انتهيت يا مختار .. انتهيت خلاص، كل إللي حلمت بيه واشتغلت سنين عليه راح مني.. المسرح والمشروع.. عيشة بتشفي غليلها .. أنا خلاص انتهيت "

ثم ألقى بنفسه على الكرسي القريب منه وهو يبكي.. احتضنه صديقه مختار وهو يحاول تهدئته..

" لا يا يوسف أنا ما أحبش أشوفك في الحالة دي.. إنت إللي عملت كل

الحاجات دي، مش هي إللي عملتك.. ما تستسلمش لليأس وتوهم نفسك.. إنت بعون الله تقدر تقوم من جديد وكلنا معاك.. فرقة رمسيس كلها معاك "

طرق أمينة رزق الخفيف على باب الشقة قطع حديثهما.. ذهب مختار ليفتح الباب ويستقبلها..

" إتفضلي يا أمينة.. "

دخلت بخطوات مترددة تحمل في يديها مبلغًا من المال وضعته أمام يوسف وهبي..

تمالك نفسه من البكاء وهو يسألها..:

" ايه دول يا أمينة ؟ "

" دي أي حاجة تساعد في الظروف الوحشة دي يا أستاذ.. "

" ودول جبتيهم منين ؟ "

ترددت لحظات قبل أن تقول..:

"دول تمن حتتين سيغة كانوا عندي ما بستعملهمش.. أرجوك تقبلهم مني"

شعر يوسف بالنار تسري في جسده وهو يشاهد الحال الذي قد وصل له.. رمقها وهو يتعجب من هذه المرأة الرقيقة التي لم يفكر فيها يومًا.. إنه يشعر تجاهها بشئ محبب.. شئ يختلف عن الحب ويختلف عن الصداقة.. يشعر أنها أصبحت ركنًا أساسيًا من أركان حياته لا يمكن

الإستغناء عنه..

" مفيش في طيبة قلبك يا أمينة، أنا مش عارف أشكرك إزاي.. بس الفلوس دي للأسف مش هتعمل أي حاجة.. الخوف بس إن عيشة لو قدمت للمحكمة الكيمبيالات إللي أنا وقعتلها عليها.. أنا ضروري هتحبس "

شردت في وجهه الوسيم لحظات قليلة قبل أن تقول..:

" ما تقلقش يا أستاذ، مش هتقدمهم.. إن شاء الله مش هتقدمهم ".

****

قضت النبيلة عائشة فهمي عدة لحظات تتفحص وجه أمينة رزق الجالس أمامها قبل أن تتكلم..

" لو في حاجة في نفسك يا أمينة قوليها.. أنا هسمعك.. "

بلعت أمينة ريقها بصعوبة وبدت مرتبكة وهي تجيبها..

" بصراحة.. بصراحة أنا جاية أطلب منك طلب.. وطمعانة في كرم أخلاقك يا هانم "

على الرغم من أن عائشة كانت تتملكها الغيرة من أي امرأة تقترب من يوسف، إلا أن هذا لم يكن يومًا شعورها تجاه أمينة رزق.. ملامحها الملائكية يصعب أن تولّد في قلبك تجاهها أي نوع من المشاعر السلبية.. تنظر إليها عائشة على أنها فتاة طيبة.. رقيقة القلب.. تتعذب مثلها بحب يوسف وهبي.. فيتملكها تجاهها شعور بالحنان الممزوج بالشفقة.

" اطلبي يا أمينة.. إنتي ما تعرفيش أنا بعزك قد ايه "

تهلل وجه أمينة وقد زادت جرأتها..

" الكيمبيالات يا هانم.. أرجوكي ما تقدميهومش للمحكمة، الأستاذ يوسف كده هيضيع.. هيتحبس.. مهما كان إللي حصل بينكم، فعلى الأقل كان في بينكم عيش وملح في يوم من الأيام.. "

رمقتها عائشة بآسى قبل أن تقول..:

" إنتي بتحبي يوسف يا أمينة ؟.. "

احمر وجه أمينة في خجل، لم تتوقع أن عائشة قد كشفت سرها.. أطرقت برأسها في الأرض ولم تجب..

" أنا عارفة إنك بتحبيه.. أنا كمان حبيته.. حبيته أكتر من أي حاجة في الدنيا.. وإديته كل حاجة بملكها.. بس هو خانّي وجرح كرامتي.. والست لما كرامتها بتتجرح.. بتعمل أي حاجة تيجي في بالها عشان تنتقم "

هبّت واقفة ثم صعدت إلى الدور العلوي ونزلت إلى أمينة بعد دقائق وفي يدها عدة أوراق..

" الكمبيالات أهي.. مش هقدمها للمحكمة.. " قالت وهي تمزقتها بهدوء وتلقيها على الأرض..

أردفت..: " وكمان هكلم الأستاذ عبد الرحمن محامي العيلة عشان يسحب الدعوى ويتشال الحجز إللي على المسرح والمشروع .. "

تلألأت عينا أمينة بالدموع وهي تستمع إلى حديثها ذاهلة..:

" ده كرم أخلاق ما يجيش غير من ست نبيلة فعلًا.. أنا مش عارفة

أشكرك إزاي يا هانم "

ابتسمت في أسى وهي تجيبها..:

" ما تشكرنيش يا أمينة.. أنا عمري ما كنت وحشة أو قلبي كان اسود.. أنا بس مجروحة.. مجروحة أوي "

ثم سقطت دموعها الحارة على خديها.. دموع جاهدت أن تخفيها منذ رأت أمينة،

وأمينة تراقبها عاجزة.. لا تستطيع أن تفعل شئ إلا أن تشاركها البكاء.. فحزنهما واحد.. وخيبتهما واحدة..

الرجل الوحيد الذي أحبَتاه لم يكن يومًا مُقدراً لهما.

****

حي المنيرة – القاهرة

كان يوسف وهبي مستقراَ بجسده على السرير طوال النهار لا يقوى على الحركة.. الصدمة التي تلقَّاها أوهنت جسده وقضت على عزيمته.. لم يخطر بباله يومًا أن تنتهي به الأمور إلى هذا الحد.. يشعر بأنه قد شاخ فجأة رغم عمره الذي لم يتجاوز الأربعين..

جاهد نفسه وهو ينهض من على فراشه ليستقبل الطارق على باب شقته.. خطوات هزيلة قطعها إلى باب الشقة وهو يتخبط، فتح الباب وهو يشعر بالذهول.. كانت سعيدة منصور تقف باكية وبيديها حقيبة سفر كبيرة..

"سعيدة ! إنتي جيتي هنا إزاي دلوقتي ؟ وايه الشنطة إللي معاكي دي؟"

أجابته وأنفاسها تتهدج..: " أنا اتطلقت يا يوسف.. اتطلقت خلاص وما عادش ليّا مكان غير هنا "

حمل عنها الحقيبة وهو يُدخلها إلى الشقة.. ثم جلست على الكنبة الكبيرة ولحق هو بها..

" احكيلي ايه إللي حصل بالتفصيل "

شهقت وهي تحاول أن تتوقف على البكاء قبل أن تقول..:

" أنا فاتحت جوزي في موضوع الطلاق.. حكى لأبويا واخواتي، وكلهم اتلموا عليّا وضربوني.. و في الآخر لما أصريت وهددت بإني هموِّت نفسي جوزي حرمني من ولادي وقاللي إني عمري ما هشوفهم تاني.. وأبويا إتبرّى مني وحرمني من أي ميراث ممكن أورثه.. أنا خلاص خسرت كل حاجة يا يوسف.. خسرت كل حاجة عشانك "

رمقها بحب وهو يقول..: " ما تخافيش يا سعيدة، أنا عمري ما هتخلى عنك.. أنا كمان خسرت كل حاجة؛ مسرحي وثروتي.. وفني كمان.. ما عدتش أملك أي حاجة غيرك إنتي"

ألقت بنفسها في أحضانه وهي تبكي.. ثم طوّقها بذراعه في حنان وأغمض عينيه وهو يشعر بأن كل الدمار الهائل الذي يسكنه قد هدأ الآن..

****

(٢٤)

كازينو بديعة مصابني -ميدان الأوبرا عام ١٩٣٣

وقف رجل قصير القامة ضئيل الجسم على مسرح كازينو بديعة الفسيح وهو يقول..:

" والآن موعدكم مع فقرة المونولوجست المحبوب.. محمود شكوكو "

ثم ضجّت القاعة بالتصفيق.. وخرج محمود شكوكو من وراء الستار وهي يتمايل في حركات فكهاية..

افتعل الجدية وتجهّم وجهه للحظات قبل أن يبدأ الغناء..

" الحب بهدلة .. خلاني قندلة .. بهدلِّي صحتي ولا حول ولا ولا.. "

قطع عدة خطوات حتى وصل إلى أكبر طاولة في الكازينو.. الطاولة التي تجلس عليها النبيلة عائشة فهمي بمفردها.. أخرج من جيب سترته وردة حمراء ثم غمز لها وهو يناولها إياها ويتغني..

" الحب شنكلة.. ولا فيهش جنتلة.. لهلب لي مهجتي.. خلاني بالبلا.. "

أطلقت النبيلة عائشة ضحكة مجلجلة في أرجاء المكان وهي تأخذ منه الوردة..

سارع إحدى الصحفيين لإلتقاط صورة للمشهد ثم بادرها بالسؤال..

" ها يا هانم.. نقول مبروك الجوازة الجديدة ؟ "

رمقته ولم تجب ثم حوّلت نظرها إلى محمود شكوكو الذي كان يواصل فقرته على المسرح..

التفتت بجانبها فإذا بوجه محبب يقترب منها.. وجه تألفه.. وجه تمنَّت لو أن صاحبه كان أخوها بعد علي.. انحنى لها محمد التابعي يحييها ويُقبّل يدها.. ثم جلس بجانبها بعدما أشارت له بالجلوس مُرحِّبة..

" مساء النور يا عيشة هانم.. يا رب تكون أحوالك عال "

افتعلت الإبتسام وهي تجيبه..:

" الحمد لله يا محمد .. الحمد لله "

" تسمحيلي.. أنا كنت عايز أكلمك في مسألة مهمة.. "

" إتفضل إتكلم أنا سامعاك "

" أفضَّل ما نتكلمش هنا.. ايه رأيك لو أعزمك على فنجان قهوة في مكتبي ؟.. "

التزمت الصمت لحظات وهي تفكر ثم زفرت قبل أن تقول..:

" أنا جاية معاك ".

****

استقرت عائشة بجسدها على الكرسي المقابل لمحمد التابعي.. أمسكت فنجان القهوة ثم رشفت منه رشفة صغيرة قبل أن تسأله..:

" خير يا محمد.. كنت عايزني في إيه ؟ "

زفر بضيق كمن هو على وشك القيام بمهمة صعبة..

" الحقيقة أنا عايز أتكلم معاكي بصفتي صديق.. أنا بعزَّك يا عيشة وإنتي عارفة.. وحاسس إن المعزة والصداقة دي بتحتِّم عليّا إني أقولك الكلام إللي هقولهولك دلوقتي.. "

" وأنا بعتبرك أخويا يا محمد.. وأي كلام هتقوله أنا هسمعه ومش هتضايق "

" أنا مش عاجبني الحالة إللي إنتي فيها.. كل يوم سهر في الكازينوهات.. وفي إشاعات بدأت تطلع إنك إتجوزتي شكوكو.. ايه الهدف من كل إللي بتعمليه ده ؟ "

أمعنت فيه لحظات، ثم تكلمت..:

" بذمتك مش لو كنت اتجوزت شكوكو فعلًا كان يبقى أحسن من جوازي من يوسف وهبي ؟! "

" يبقى إللي انتي بتعمليه ده ما منوش داعي.. يوسف دلوقتي متجوز وسعيد في حياته.. ما بيبصش وراه.. "

صاحت مستنكرة ..: " طب وأنا ؟ "

" إنتي ايه ؟ "

" أنا نهايتي ايه بعد كل ده..؟ يوسف خانّي وراح اتجوز أعز صاحبة عندي.. أنا طول عمري حزينة يا محمد.. عمري ما دوقت طعم السعادة غير لما قابلت يوسف.. وكإنّ الدنيا استكترته عليّا.. وكإنّي مش مكتوبلي إني أفرح.. "

" إنتي عارفة إنتي مشكلتك ايه ؟ "

رمقته متعجبة..: " ايه ؟ "

" إنك رابطة سعادتك وحزنك بيوسف وهبي.. من إمتى الأشخاص إللي بنقابلهم هما إللي بيصنعوا مصيرنا..؟ سعادتك أو تعاستك مربوطة بيكي إنتي وبس.. لو قررتي تغيّري نظرتك للدنيا.. هتعرفي إزاي تسعدي نفسك بنفسك "

" أنا كل حاجة مرَت عليا في حياتي كسرتني.. موت أخويا، وطلاقي الأولاني، وحبي ليوسف إللي اكتشفت إنه أكبر مقلب شربته في حياتي.. "

" كل ده وارد إنه يحصل لأي حد فينا.. أهم حاجة إنك ما تخليش الحزن يكسرك.. الدنيا بتمشي وما بتستناش حد.. بصي على الحاجات الحلوة إللي في حياتك.. وما تركزيش على إللي راح منك "

قالت مستهزئة..: " وهو ايه الحلو إللي فاضل في حياتي.. ؟ "

" الصحة والثروة والقلب الكبير.. وحاجات كتير اوي.. مشكلتك إنك مش حاسة بقيمة نفسك وبقيمة إللي عندك.. أول ما هتبدأي تقدَّري كل النعم إللي في حياتك.. أول ما تبدأي إنك تحبي نفسك.. هتحسّي بالرضا.. وساعتها بس بالك هيرتاح "

حدَّقت في الفراغ الماثل أمامها وهي تستمع إلى كلماته..

لم تفكر يومًا بهذا الشكل.. لم تتصور يومًا أن تنظر إلى حياتها من هذه الزاوية.. إن السعادة التي ظلت تنشدها لم تتحقق لها حتى بعد أن تزوجت يوسف، إن نفسها شقية.. تعسة.. ربما نسَت في خضمّ كل هذا

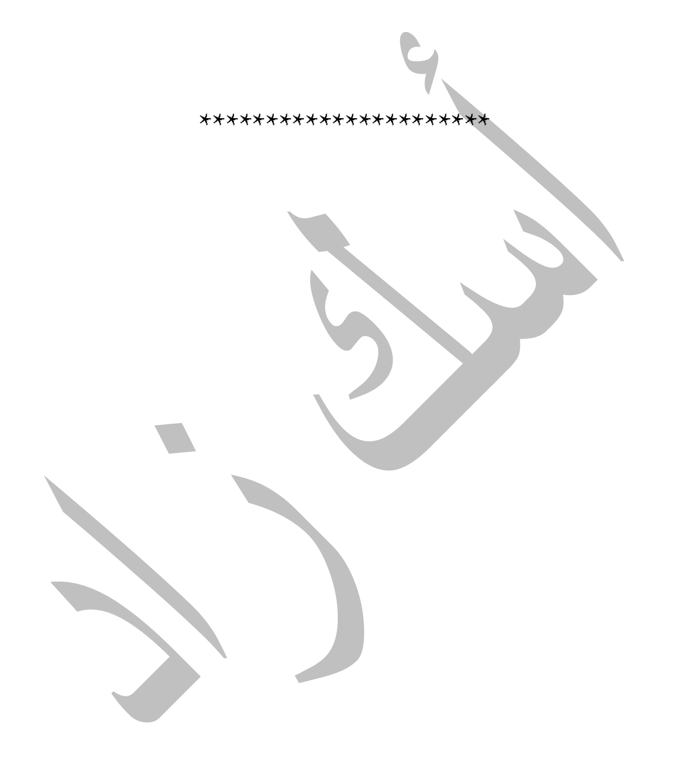
أن تشعر بالحب مع نفسها أولًا..

شكرته على دعوته، ثم حملت حقيبتها وهمّت أن تنصرف..

وعقلها يفكر في كل كلمة قالها..

لا يتوقف عن التفكير !.

****



(٢٥)

قصر عائشة فهمي بالزمالك – مارس عام ١٩٤١

كانت الشمس على وشك الغروب عندما توقفت سيارة كاديلاك سوداء عند بوابة القصر، ترجّل منها وهو يرتدي بذلة أنيقة من الصوف ونظارة سوداء أخفت خلف عدساتها السوداء عيناه الحالمتين، يفوح منه عطر الياسمين الذي لم يغيره منذ سنين.. عطر يستطيع أن يربك أعصاب أي امرأة..

توقفت شابتان على الرصيف المواجه وهما يُمعنان النظر فيه.. صاحت إحداهما..:

" مش ده يوسف وهبة بتاع السيما ؟! "

التفت لهما في حب وهو يحيهما بيده.. لا شئ يجعل نفسه تنتشي مثل حب الجماهير..

اقترب من بواب القصر الذي حيّاه وفتح له البوابة في خضوع..

دلف إلى القصر وهو يتذكر سنوات مضت من عمره.. هاجمه حنين خفي وهو يسترجع أول زيارة لهذا القصر ثم ابتسم في شجن..

أطلق بصره في المساحة الواسعة فرآها تستند على السور المطل على النيل بهدوء.. ربما اكتسبت بعض الوزن الزائد.. وغطّى الشيب مساحات كبيرة من شعرها.. ولكن هدوئها الغير مفتعل ما زال على حاله..

اقترب منها وحيّاها ثم لثم يدها واستند بذراعه على السور مواجهًا لها..

رمقته وفي داخلها تتسائل عن سرعة مرور السنوات المخيفة..

" أهلًا وسهلًا يا يوسف.. والله زمان.. "

ابتسم لها وهو يخلع نظاراته الشمسية وقد بدا أن السنين الفائتة لم تترك أي أثر على وسامته..

" أهلًا بيكي يا هانم.. والله زمان فعلًا.. "

" طبعًا إنت من جواك عايز تعرف أنا ليه بعتلك وطلبت إني أقابلك بعد كل السنين دي.. "

" ما أخبيش عليكي إني عندي فضول كبير.. لكن حتى لو كان السبب إني آجي أشوفك وأسلم عليكي ده يكفيني.. إللي بينًّا عمره ما كان قليل "

غاصت ببصرها في عينيه الحالمتين وهي تستعيد تأثيره الساحر على نفسها..

" لسه كلامك حلو بردو يا يوسف .. لسه بتعرف تضحك على الستات "

أطلق ضحكة مدوية قبل أن يجيبها..:

" مشخصاتي بقى هتقولي ايه..؟ التمثيل لعبتي.. لكن الكلام إللي بقولهولك ده من قلبي فعلًا "

زفرت وهي تفتعل الجدية، ثم أردفت..: " الحقيقة إني طلبت أقابلك بعد كل السنين دي عشان سببين.. إني أعتذرلك وأشكرك "

رمقها متعجبًا قبل أن يسألها..:

" على ايه ؟.. "

" أعتذرلك إني أذيتك في يوم من الأيام وإتسببت إنك تخسر حاجات كتير بتحبها.. بس أنا كنت مجروحة، وكنت بعمل كل ده عشان أنتقم لكرامتي.. "

" أفتكر إني أنا كمان أذيتك.. بس صدقيني إنه ما كانش قصدي.. عمري ما قصدت إني أجرحك.. "

" وأنا مصدَّقاك.. "

صمتت برهة، ثم أردفت ..: " وكنت عايزة أشكرك على اللحظات الحلوة إللي عيشتها معاك.. اللحظات إللي عدِّت بسرعة بس أنا لسه عايشة عليها لحد دلوقتي.. أنا اتغيرت كتير يا يوسف.. حاسة إن قلبي هدي.. ما بقيتش أخاف.. ما بقيتش أقلق من أي حاجة.. "

ابتسم لها ذاهلًا ثم تكلم..:

" اللحظات الحلوة دي ما كانتش هتبقى حلوة لولا إنها معاكي.. يبقى أنا كمان لازم أشكرك يا عيشة.. إنتي أسعدتيني زي ما أسعدتك.. أنا من قلبي بتمنالك إنك تلاقي السعادة وتلاقي البني آدم إللي يملى عليكي حياتك.. "

أطلقت ضحكة مدوية ثم أردفت..:

" بس أنا سني بقى ٥٠ سنة.. العمر ما عادش فيه مكان تاني لأي حب.. إللي جاي مش على قد إللي راح "

" بالعكس.. طول ما إنتي عايشة وفيكي نَفَس يبقى في إمكانك إنك

تحبي.. وتتجوزي وتعيش حياتك.. "

غاصت ببصرها في وجهه الوسيم وهي تتذكر عمرها البعيد..

" لسه زي ما إنت، ما إتغيرتش يا يوسف.. "

أعاد ارتداء نظاراته الشمسية ثم أردف..:

" وما أفتكرش إني هتغير.. "

أمسك كفها برفق وهو يقبله قبلة حانية.. قبلة قد بعثت في نفسها نشوة غريبة..

استأذن منها وهو يودّعها ثم انصرف وعيناها معلقتان عليه تراقبه وهو يختفي من أمامها شيئًا فشيئًا..

عادت تستند على السور والتفتت تراقب مشهد غروب الشمس على نهر النيل .. النهر الساكن يبتلع قرص الشمس شديد الإحمرار في صمت وكأنه يسطر كلمة النهاية.. أمعنت النظر للحظات، ثم أخذت تبكي وهي تؤنب نفسها متعجبة..

كيف لم تلحظ من قبل كم هو جميل منظر غروب الشمس من على هذا السور ؟! .

****

- توفيت النبيلة عائشة فهمي عام ١٩٦٢ بعد أن تزوجت زواجها الثالث من عضو مجلس الأمة عن الفيوم " أحمد فتحي " بسنوات طويلة، بعد وفاتها استحالت ملكية القصر لشقيقاتها ثم صدر قرار جمهوري عام ١٩٦٤بتأميم القصر.. وتم تحويله إلى متحف لعرض مجوهرات أسرة محمد علي، ثم تحوّل فيما بعد إلى مقر مجمع الفنون، وما زال حتى الآن مفتوحًا للزيارات.

- استكمل يوسف وهبي مسيرته الفنية وقدَّم أهم الأعمال على المسرح والسينما حتى وفاته بعد حياة حافلة بالتكريمات والجوائز في عام ١٩٨٢ وإلى جانبه زوجته السيدة سعيدة منصور التي بقيت ترافقه حتى آخر يوم في عمره.

- لم تتزوج أمينة رزق في حياتها وتفرّغت للتمثيل، وقدَّمت أهم الأعمال على المسرح والسينما والتليفزيون بجانب أستاذها يوسف وهبي حتى وافتها المنية عام ٢٠٠٣.

- استمرت فاطمة رشدي في تحقيق النجاح بفرقتها المسرحية ثم اتجهت إلى العمل بالسينما، حتى خفتت الأضواء عنها تدريجياً واعتزلت الفن، وضاقت بها الأحوال حتى أصبحت تعيش في غرفة صغيرة في إحدى الأحياء الشعبية في القاهرة حتى وفاتها في عام ١٩٩٦ .. عندما شرعت بنشر مذكراتها استهلّتها بجملة واحدة " إلى الذى جعل منى شيئًا عظيمًا، وكنت لا شىء، ورفعنى إلى القمة.. إلى الذى جعل العالم يتحدث عنى كما يتحدث عن الأساطير، وجعل

الخلق ألسنة حق، مُشيدة بى، ومعجبة بفنى رافعة من شأنى.. . إلى أستاذى عزيز عيد، وكفى!.

- توفي عزيز عيد عام ١٩٤٢ بعد حياة قصيرة لم ينل فيها حظًا وافرًا من الشهرة.

- تعد عزيزة أمير أول مخرجة في التاريخ وأول منتجة مصرية.. أسهمت في صناعة العديد من الأفلام المصرية المهمة حتى وفاتها عام ١٩٥٢ بعد حياة قصيرة مليئة بالإبداع.

- يعد فيلم أولاد الذوات أول فيلم مصري ناطق تم إنتاجه عام ١٩٣٢ .. وقوبل بهجوم شديد من قبَل بعض الجاليات الأجنبية التي تسكن مصر.

- توفيت مارجريت ميلر عام ١٩٧١ بفرنسا وظلت حتى وفاتها محتفظة بلقب مدام فهمي؛ لأنها وكما ذكرت أن علي فهمي كان هو الحب الحقيقي الوحيد في حياتها.

*** **تمت** ***

مصادر تاريخية :

- " مأساة مدام فهمي " للكاتب صلاح عيسى.
- " يوسف وهبي سنوات المجد والدموع " للكاتبة راوية راشد.


أسك زاد